القراءة للجميع
مكتبة الأسرة
سلسلة الأدب

لَحْسُ العَتَبْ

رواية

خيري شلبي





رواية

خيرى شلبى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥



برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدير

«لحس العتب» رواية قصيرة لكاتب باذخ الثراء، فلقد اتفق النقاد والمتابعون للإبداع العربى أن «نجيب محفوظ» هو المؤرِّخ الرسمى لطبقة الأفندية فى مصر، وكذلك اتفقوا على أن «خيرى شلبى» هو المؤرخ الشعبى لطبقة المهمشين فى مصر.

ينتمى «خيرى شلبى» إلى الجيل الذى أتى بعد «نجيب محفوظ، استفاد من تجربته، ومن رسمه الدقيق للأماكن والشخوص، ومن دأبه غير العادى فى الكتابة، وإخلاصه غير المعهود لفنه.

أهدى «خيرى شلبى» للمكتبة العربية، عناوين كثيرة تكوِّن مشروعًا سرديا مكتملاً: . السنيورة/ الأوباش/ الوتد/ فرعان من الصَّبار/ العراوى/ الشطار/ رحلات الشطرنجى/ المنحنى الخطر/ صياد اللولى/ سوناتا الأمل. وغيرها من الأعمال السردية والقصصية التى أكدت على تفرد تجربته وخصوصيتها.

«خيرى شلبى» لا يخطئه وجدان هذه الأمة، وأبناؤها الذين يعرفون دأبه، وينتظرون إبداعه الجميل.

«لحس العَتبْ» التى تقدمها مكتبة الأسرة هذا العام، هى الرواية الأحب لـ «خيرى شلبى» نفسه، وعلى الرغم من أنها صدرت فى طبعتها الأولى عام ١٩٩١ إلا أنه يرى أنها لم تقرأ جيدًا.

وقد تُوِّجَتْ أعمال الكاتب الكبير خيرى شلبى هذا العام - والكتاب ماثل للطبع - بجائزة الدولة التقديرية، التى تعد تقديرًا لمنجزه السردى العام.

«لحس العَتبْ» هى رواية آسرة، صغيرة، يمكن قراءتها فى جلسة واحدة، لكن أصداءها ستظل عالقة بالوجدان طويلا.

مكتبة الأسرة

ليست هذه الترابيزة العجيبة هى كل ما تبقى من آثار العز والنغنغة التى كانت تتمتع بهما ديارنا ذات يوم بعيد. فهناك صيت الزعالكة نفسه وهو وحده يكفى لجلب الاحترام عند كل من يسمعه. وهناك أعمامى الكثار الذين تكاد تتشكل منهم ومن أبنائهم وأبناء أبنائهم وبناتهم بلدة كبيرة جداً تسمى بالزعالكة لا يسكنها مخلوق واحد لا ينتهى اسمه بزعلوك. كما أنه ليس فى العب كله من لم يحلم بالزواج من بنات الزعالكة أو يزوج بناته من شبان الزعالكة. وهناك أبى نفسه، الحاج عبدالودود زعلوك الذى عشق العلم فتعلم حتى شهادة عالمية الأزهر الشريف، ثم خلع عمامة العلم واشتغل بالفلاحة وتجارة الحبوب، نفس مهنة أبيه التى عيشته كالبرنس وكونت له ثروة هائلة تقاسمتها قبائل من أولاده.

غير أن أبى لم يكن فى براعة جدى ولا حصافته ونصاحته، ولا قدرته على التحويش والادخار. إلا أنه يرمى الذنب كله على اتضاع الزمن ونذالة الأيام وكثرة العيال، فكل ذلك قد أتى على كيس نقوده فصار مخزن الحبوب يتناقص حتى بات لا يحتوى على قوتنا الضرورى، فأصبحنا نشترى القمح والذرة والشعير من تجار كانوا صبيانًا عند أبى ذات يوم، ونستقضى اللبن والسمن والجبن من أقاربنا الميسورين. أما أن يمد أبى يده ليأخذ من أحدهم قرش تعريفه واحد فهذا ما يعتقد أن الموت أهون عليه منه، لأن أحدًا من الزعالكة لا ينبغى له أن يشحذ حتى ولو كان يشحذ من أخيه ابن أمه وأبيه. ثم إن أبى لا يشجع الشحاذة أصلاً حتى بالنسبة للعاجزين عن الكسب فما بالك بالأصحاء؟ ولذا فقد عاش أبى مرهوب الجانب حتى وهو يشترى الحبوب ـ لأكلنا ـ بالكيلة.

وهناك ـ فوق ذلك ـ دارنا هذه التى ورثها أبى وحده باعتباره أصغر الأعمام الكبار الذين ورثوا قبل ازدياد عدد الوارثين. وهى دار لا تخطئ العين عراقة أصلها. وهناك بعد ذلك الستر، فالداخل إلى مندرتنا لابد أن يجد كنبة عتيقة مفروشة بالحصير الملون والمساند، ويجد كرسيًا عباسيًا بصينية نحاسية توضع فوقها صينية الشاى الذى سيجىء له بعد دخوله بدقائق ولابد أن يتكلم مع أبى فى تأدب شديد مهما كان مركزه، ويقول له: «يا آبا الحاج»، هو

يعنيها بالفعل لا مجرد مجاملة، وأن يحادث أبى كما لو كانت الثروة ماتزال تغرقنا والجاه مايزال يتوجنا، ولابد أن يتردد المثل السائر: إن ذبل الورد تبقى رائحته فيه، أكثر من مرة.

وبقدر ما كان ذلك يرضى غرورى أنا وإخوتى فإنه كان يحنقنا، إذ إن إخوتى كلهم - وأنا من بينهم - لم نر من هذه الثروة ولا من هذا الجاه شيئًا، أى شىء، بل لقد كان يساورنا شك خفى فى أن يكون أبى - هذا الجلف الخشن الغليظ الصوت، والرقبة والملامح والأطراف - كان ذات يوم من الأيام ابن عز، فنحن لم نره إلا وهو يأكل القديد والمش فيحمد الله ويقبل يده ظهرًا لبطن ثم يبرم سيجارة كعود الكبريت يعفرها فى استمتاع، ويقضى النهار والليل بالفانلة والسروال والصديرى وفى آخر الليل يتمدد على كنبة فى المندرة متوسدًا حشية من القش متغطيًا بحرام متهرئ. لا يشتغل سوى يوم واحد فى الأسبوع هو يوم سوق البلد، حيث يخطف رجله إلى السوق من صبيحة ربنا، ليحشر نفسه بين باعة الحبوب والبذور والمحاصيل مختلقًا لنفسه سمسرة من البائع والمشترى، على السواء بصنعة لطافة معجزة لا يقدر عليها سواه.

معظم الأشياء الثمينة التى ورثها أبى عن جدى قد فرطنا فيها بشكل أو بآخر، لسبب أو لآخر، مع أن كل شىء فرطنا فيه لم نفرط فيه بسهولة، إنما يصير شغلنا الشاغل

لشهور طويلة تتخللها مفاوضات واستشارات من أبى لبعض أقاربه، بل واستخارات يلجأ فيها إلى الله بقراءة آية الكرسى وسورة يس قبل النوم لكى يرى فى المنام حلمًا يدله على الفعل الصحيح بإيعاز من الله. لكن الأشياء تسربت فى النهاية، ولم يبق من معالم تاريخنا أثر حى إلا هذه الترابيزة العجيبة، ولهذا رفض أبى أن يفرط فيها بأى ثمن.

هى ترابيزة مستطيلة مما يسميه الناس فى بلدتنا بترابيزة الوسط، أى التى أعدت لكى توضع فى المندرة بين الجالسين، ليمتد فوقها الطعام والشاى. كبر حجمها يؤكد أنها أعدت لعائلة كبيرة ذات مندرة كمندرتنا. طولها يزيد عن مترين وعرضها يزيد عن متر ونصف المتر. شكلها يدل على صنعة متينة متقنة، شغل يدوى، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس إن تأملتها قليلاً تبينت أنها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الأظافر، ظللنا لسنوات طويلة نتوهم أنها من الذهب. أما خشبها فنوع غريب جدًا لم نعرف له اسمًا، ولكن رائيها يتصور لأول وهلة أن عملية نقلها من مكانها يلزمها عشرة رجال على الأقل لكى يتمكنوا - فقط - من زحزحتها، وكم كان مبهجًا وطريفًا أن يحاول أحدهم اختبار ثقلها فإذا هو يفاجأ بأنها خفيفة كالنكتة البريئة، وإذا هو قادر وحده على رفعها والسير بها لولا طولها وعرضها. هى مع ذلك متينة كالحديد الصلب، ناعمة الملمس كالحرير.

وهناك هناك فى أبعد ركن فى ذاكرتى أكاد أرانى طفلاً فى حوالى الثالثة من العمر أرتع زحفًا على سطح هذه الترابيزة رائحًا غادياً فى زأططة وعمتى تلاحقنى لاهثة وأمى تباشرنى من كل ناحية حتى لا يأخذنى حماس اللعبة فأنكفئ على الأرض. أيامها ـ فيما أذكر ـ كانت شبابيك المندرة مفتوحة على الدوام من نصفها الأعلى، حيث تنقسم كل ضلفة إلى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطول والآخر علوى وهو الأصغر، فإذا انفتح النصف الأعلى لم يتمكن المارون فى الشارع من رؤية الجالسين فى المندرة، حينئذ يندهن شكل الضحى بلون السماء الصافية، وما أسرع ما تفوت الشمس غارقة فى خجل الحياء تاركة فوق الحائط المواجه بقعة من دمائها كالكرة الحمراء تظل تضيق وتضيق إلى أن تمحوها ظلال المغيب، هذه الظلال التى باتت تسكن المندرة منذ سنوات طويلة، منذ أن كفت مندرتنا عن استقبال الضيوف المهمين من الأغراب والتجار الكبار، فبقيت الشبابيك مغلقة على الدوام إلا ضلفة من الشباك البحرى لكى يدخل الهواء الطيب لأبى، الذى لايزال يهوى النوم ظهرًا فوق الكنبة التى تحت هذا الشباك مباشرة، ويقضى معظم الليل فوقها يقرأ الأوراد والتسابيح ويستقبل بعض أعمامى وعماتى العجائز، وشلة من أصدقاء قدامى.

***

والواقع أننى لست أذكر متى رحلت هذه الترابيزة من وسط المندرة إلى الخزنة الملحقة بها. هى حجرة مستطيلة كالسرداب يفصل بينها وبين المندرة جدار من الخشب البغدادلى. لها بابان أحدهما يفتح على المندرة والآخر يفتح على دهاليز الدار حيث تحف به بعض القاعات المهجورة، ودويرة الفرن وتعريشة الكنيف تحت السلم الطينى. قيل أن هذه الخزنة كانت بمثابة محطة يتوقف عندها الطعام القادم من مكان ما فى الدار قبل أن يقدم للضيوف الجالسين فى المندرة، حيث يتم ترتيب الأطباق وتعديل أشكالها وأوضاعها، وحيث توضع كميات احتياطية جاهزة على الفور عندما يشعر المراقب للآكلين أن طبقًا من الأطباق قد فرغ، فيرفعه ليضع مكانه بدلاً منه فى الحال. ولقد طوى أمرها مع أمر الترابيزة حين لم يعد لكليهما ضرورة تذكر.

حتى هذا لم أعد أذكره إلا لمامًا، إنما أذكر ـ منذ وقت بعيد جدًا ـ أن هذه الترابيزة قد احتلت ركنها هذا من هذه الخزنة ، وقد وُضِعت فوقها تلال من أشياء تنوء بحملها الجبال وتضيق باحتوائها دار بأكملها، أكياس من قطن تنجيد وسخ مخلوط بالتراب والحصى وفتات الخرق والخيوط البالية كانت فى الأصل مراتب وألحفة ووسائد منذ سنين بعيدة.. صفائح كبيرة لتخزين الملوخية الناشفة والحلبة الحصى وزيت وسكر التموين، تضاف إليها وفوقها صفائح أخرى لتخزين كعك العيد.. صندوق خشبى من صناديق

الصابون النابلسى يمتلئ بأشياء لا حصر لها من متروكات ومهملات، صواميل، مسامير، غطيان كازوزه، ظرف ساعة جيب قديم، مغزل، نحلة، فردة حلق بلاستيك، شباشب قديمة متآكلة، زجاجات عطر فارغة تختلط رائحتها العتيقة بروائح الرطوبة والتراب والعفن فتزكم الأنوف برائحة زنخة. لم يكن أحـــد يحب التـــقليب فى هذا الصندوق إلا عند الضرورة القصوى، ولهذا كانت أمى تخفى فيه بعض القروش التى تبيع بها بيض الدجاج، أو طورة بلح مما اشتريناه يوم سوق مضى تدخرها لأخى الغائب فى شغل الترحيلة. فلما انكشف أمر الصندوق صارت تخفى الأشياء بين الكراكيب العديدة، حيث يصبح من المستحيل على أى منا أن يرفع هذه الكراكيب الثقيلة ـ وبعضها ثابت راسخ فوق بعضه البعض من سنوات وسنوات ـ لكى يبحث تحتها أو بينها عن شىء مخفى.

أمى هى الوحيدة التى تستطيع ـ فى غفلة منا ـ أن تسرب يدها بين الأشـيـاء خلسـة لتـعـود بالشىء المطلوب فى لمح البصر. كثيرًا ما كان أبى يفاتحها فى اقتراض ثمن ورقة دخان لف، فإذا هى تنكر صائحة:

ـ «منين؟ النبى أشرف خليقة الله ما احتكم على ريحتها»!

حينئذ يركز أبى بصره القوى فى عينيها صائحًا:

ـ «يا مره، يا مره بطلى كهن وبزى بقرشين»!

فإذا هى تشوح له ناحية الترابيزة قائلة فى ثقة:

- الدار عندك أهه قوم دور فيها»!

وليس أبى مجنونًا بالطبع لكى يقوم ويبحث فى هذه الغابة عن إبرة، فيسلم أمره لله ويسكت. فى السابق كان يفعلها، فيقوم وينكت الدنيا يقلب عاليها سافلها فوق الترابيزة فلا يجد شيئًا.

أما تحت الترابيزة فالأمر أشد وأنكى: ركام لا حصر له من أشياء قديمة بالية لا لزوم لها على الإطلاق، ومع ذلك لا أحد يعرف لماذا نحتفظ بها؟ ولماذا نتركها تحتل هذا المكان؟ ولطالما تساءلت هل نحتفظ بها لوجود هذا المكان؟ أم لقيمة معينة فيها؟ أم أن هذه الأشياء من تلقاء نفسها زحفت تحت الترابيزة واختبأت لتنجو بنفسها من شدة إصرارنا على استعمالها حتى وهى مفككة أو ذائبة أو مهملة أو صدئة. الذى أنا متأكد منه أن أى شىء يزحف تحت الترابيزة أو يسقط سهوًا فإنه يكون قد وُرِّي تحتها إلى الأبد، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تكتشف المكان الذى سقط فيه هذا الشىء أو ذاك. ومع ذلك فإننا لا يحلو لنا عد القروش أو فحص بيض أو فعل أى شىء، من هذا القبيل إلا على الجزء المتبقى من فراغ الترابيزة. وقد تعود الواحد منا أن يمسك الشىء بأعصاب متوترة، فما أن يرتبك أدنى ارتباك حتى يسقط الشىء من بين يديه، فيندفع الواحد منا فى

الحال وراءه منقضًا عليه قبل زحفه تحت الترابيزة، ولكن عبثًا، إنه لابد أن يكون قد اختفى فى لمح البصر، إذا كان فرشًا فقد فرّ، ليستقر فى منعطف مجهول، وإن كان فردة حلق فإن الأرض تنشق وتبلعها، وإن كان فردة حمام أو دجاجة فإن أيدى الجن نفسه لن تفلح فى الإمساك بها بل لن تعرف فى أى ركن تختبئ، إلا أن تخرج هى بمزاجها بعد انتهاء المطاردة، وربما تعطلت عن الخروج نهائيًا. وإن حاول أحد أن يقل عقله وينحنى غاطسًا تحت الترابيزة فى محاولة يائسة للبحث فإنه سيشعر من أول نظرة أن الأمر مستحيل، سيرى غابة من: بقايا محراث قديم من أيام ما كنا فلاحين نملك أرضًا، مع بعض فأس وبعض كريك وعجلات مشرشرة من مخلفات نورج قديم هرم، وبرذعة تشهد أن كان لدينا ركوبة توصلنا، وفردة رحاية وضعنا زميلتها كمسند لزير المياه منذ صار فى بلدتنا ماكينة للطحين، وطشت غسيل نحاس كان ذات يوم عزيزًا إلى أن تآكل قعره فصار مجرد إطار كالمنخل التحم بالأرض واشتبك بأشياء أخرى، وميزان حدادى كبير بلا كفات يُقال أننا كنا نزن عليه اللحوم المشتراه أو التى نوزعها فى عيد الضحية، وحطام صندوق ملابس كان من شوار أمى واحتفظت به لإصلاحه لكنه تشتت قطعًا قطعًا. وهناك إلى ذلك براريض وقباقيب وأجولة وغير ذلك من أشياء فقدت شكلها واسمها وأصلها فباتت مجرد أشياء.

أى رجل من عـائلتنا أو أى زائر يضطر للدخـول إلى هذه الخزنة يصيح أبى من خلفه محذرًا إياه فى جدية بالغة:

- «إياك والاقـتـراب من التـرابيـزة! وإلا فلو وقـعت تحـتـهـا فنحن غير مسئولين عنك»!

وحينمـا زاد عـدد أفراد عائلتنا واقتسموا الدار ضاقت بنا القـاعـات وتزايد عـدد إخوتى فصـرنا ننام فى هذه الخـزنة، نفتـرش حصيرًا تآكلت أطرافه وبقع كثيرة من وسطه فبرزت خـيـوط الدوبارة من كل نـاحـيـة وصـارت تشـبك فى أصـابع أقـدامنا وتلتف عليـهـا كلمـا تقلبنا أو تمـددنا. كـانت نومـتى تجىء دائمًا فى الطرف بجـوار التـرابيـزة، فـأظل طول الليل منكمشًا على نفسى خشية أن يزحف علىّ مجهول قـادم من تحت الترابيـزة يقـرصنى أو يلـحسنى أو يأكلنى. فإن تقافز فـأر أو خنفسـاء بجـوار رأسى فـزعت. أمـا إن لمس أذنى أو أصـبعى فـإننى أنتـفض فى الحـال صـارخًا لأظل جـالسًا فى موضعى بقية الليل أرتعش. تتقلب أمى النائمة تحت أقدامنا مـتـوسـدة ذراعـهـا، تقـول من خـلال نومـهـا: «مـالـك يا وله»، فأقول باكيًا: «فيه حاجة كانت بتلحس فىّ» فتغفو من جديد قـائلة: «قـول باسم الله الرحـمن الرحـيم ونام!». ولربما انتفضت هى الأخرى فى الحال نافضة ساقها بذعر خفى، فـأعرف أن ذلك المجهول الغامض قد لامسهـا عند مروره. وحـين تسـتـيـقظ هـى فى الليل وترانى جـالسًا أحـزق من

الخوف، تتزحزح ناحيتى وتأخذنى فى حضنها حتى أنام، ولكن منطقة تحت الترابيزة تبقى طول الليل فوهة يفح منها الخطر الخبيث المخادع.

***

عندما التحقت بمدرسة البلد لم يمض عامان حتى أصابنى مرض غريب حار فى فهمه حلاق صحة البلد، لكنه سلمنا بعض أقراص صغيرة صفراء تسمى «الكينين» وأوصى بأن آخذ قرصًا بعد الأكل ثلاث مرات يوميًا. فما فعلت هذه الأقراص شيئًا سوى أنها صبغت بياض عينى بلون الاصفرار الكابى، وهدلت كل أطرافى، فصرت أقضى النهار كله جالسًا القرفصاء فوق الكنبة العتيقة فى المندرة، آكل أطباق الأرز باللبن وأشرب الليمون حتى كرهت طعم الحلاوة فانقلبت فى حلقى إلى مرارة دائمة. وإن هى إلا أيام قليلة حتى لحق بى أخى خالد، فانضم إلى جوارى على الكنبة مصفر العينين والوجه بارز عروق الرقبة.

مكثنا على ذلك طويلاً، حتى بات منظرنا مألوفًا كأنه جزء من هذه الكنبة. وصار ضيوف أبى يسموننا المتهمين، إشارة إلى جلستنا القرفصاء معًا لا نفعل شيئًا ولا نتكلم ولا نبتسم ولا نبكى كأننا فى انتظار حكم سيصدر علينا بعد قليل. غير أن هؤلاء الضيوف الذين أشبعونا تريقة ومسخرة هم الذين نصحوا أبى بضرورة الذهاب بنا إلى مستشفى

البندر أو إلى الحكيم، ويا حبذا لو كان الحكيم هو «ألبير فهمى» الشهير فى بندر دسوق الذى يذهب إليه كل مريض فى بلدتنا فيشفى.

ولم يكن أبى بحاجة إلى هذه النصيحة، إنما كان بحاجة إلى قرشين لكى ينفذها فى الحال. وكان كلما استمع إلى هذه النصيحة ينظر إلينا فى أسى شديد، ويهز رأسه قائلاً فى عشم كبير:

- «إن شاء الله! إن شاء الله حاوديهم لأكبر حكيم فى البندر»!

فلما تكررت نصيحة الضيوف وازداد ثقلها عليه، هز يده فى غضب مكتوم وقال من بين شفتيه فى هدوء شديد:

- «يا أسيادنا هو الحكيم ده مش حياخد فلوس؟ ولا حيكشف عليهم لوجه الله»؟!

واعتبر أنه بذلك قد خرج عن طوره وفقد أعصابه، إذ إنه أضاف بنفس الهدوء:

- «متأخذونيش إذا كنت اترفزت عليكم»!

فانبرى عبدالفتاح الزيات قائلاً من خلف الجرنان المفرود أمام وجهه:

«يا عم شوف لك صرفه فى الترابيزة دى! تمنها ممكن يعالج لك العيال»!

وكان يقرأ فى الصفحة الأخيرة، أما الصفحة الأولى فقد كانت مفرودة أمامنا مباشرة، وكلمة: المصرى، بالخط الثلث الكبير، غاطسة فى العلم الأخضر ذى الهلال والنجوم، وتحتها عنوان كبير بعرض الصفحة بالحبر الأسود يشير إلى اختفاء هتلر فى ظروف غامضة. قرأه محمد مصباح الجالس بجوارنا وقال:

- «يعنى يا خويه الحاج محمد هتلر مش باين له حس ولاخبر! يكونش بيدبر فرتينه جديدة»؟

ووجدتنى أنطق لأول مرة بعد شهور طويلة قائلاً:

- «ده موت نفسه! انتحر عشان الناس ما تشمتش فيه»!

هنا أزاح عبدالفتاح الزيات الجرنان عن وجهه ونظر لى فى دهشة منذهلة. وجاراه فى هذه النظرة محمد مصباح ومحمود جميل وعلى بقوش ورمضان ابن عمتى، الذى كان متربعًا أمام الوابور متوليًا سلطنة الشاى. أبى كذلك نظر فى زهو شديد، وفى زهو أشد قال:

- «يا عم دا فخرى ابنى عارف الحقيقة! أقطع دراعى إن ما كان انتحر فعلاً»!

وكانت الأكواب الزنك الصغيرة قد ارتصت أمامهم فراحوا يشفطون الشاى منها بصوت عالٍ وقد اندمجوا فى تفكير عميق، فى صمت لا يخدشه سوى صوت الشفط

وصوت الوابورين باعثًا الأنس الجميل فى قعدة العصارى التى تمتد إلى ما بعد منتصف الليل. وكنت أستطيع أن أرى خلف جلد وجوههم أفكارهم التى ينغمسون فيها، وأراها من خلال وجه أبى الذى راح ينقل البصر بينهم خلسة كأنه يعرف مقدمًا أن مؤامرة تدبر ضده لانتزاع الترابيزة على وجه التحديد.

إنهم جميعًا من الأعيان المحدثين، الذين كانوا منذ سنوات قليلة من الناس العاديين، حتى قامت الحرب العالمية الثانية فحولتهم إلى أعيان لا حاجة بهم إلى الشغل.

فعبد الفتاح الزيات كان بقالاً صغيرًا من عائلة كبيرة العدد كلها من الفلاحين ذوى القراريط والفدان ونصف الفدان، ومنهم عدد كبير من الأجرية والأنفار. ومنذ عودته من الجندية مرفهًا ناسيًا أمر الفلاحة باع فدانه الملك وافتتح بثمنه الدكان، وحشره بأنواع البضائع، وملأ مخزنًا كبيرًا ببراميل الزيت وصفائح السمن.

الناس فى بلدتنا معظمهم لا يملك النقود معظم أيام السنة، ولذا فإنهم يشترون حاجاتهم بالأشياء، أو على ذمة محاصيل قادمة. فأنت تدخل الدكان وتشترى باكو دخان أو باكو شاى بأربع أو خمس بيضات. والمرأة تشترى الفلفل والشطة والكمون والخيط والطماطم والخضراوات بحفنات من الأرز أو القمح. كوب الماء الكبير الذى يوضع فوق الزير

هو العيار السائد، هذا الشىء بكوب من الأرز الأبيض أو بكوبين. وبائع القلل والبلاليص أو بائع البلح الحيانى أو أى بائع سريح، قد يقطع البلاد طولاً وعرضًا بحماره ليعود فى نهاية الرحلة وقد جمع رسماله أرزًا وفولاً وشعيرًا وقمحًا وبصلاً وبيضًا، ليبيعها بدوره للتجار المتخصصين فيكسب فروق سعر تعوضه المشقة.

عبدالفتاح الزيات جمع من البيع محصولات كثيرة قام بتخزينها كى يبيعها للتجار جملة، فأدركته الحرب فارتفعت الأسعار خمسة أضعاف، فصار هو يبيع هذه المحاصيل بالقطاعى للآكلين بسعر السوق السوداء، ليصبح بين عشية وضحاها من أغنياء الحرب الذين نتفرج على صورهم المكعبرة فى جريدة البعكوكة التى يشتريها ورقًا يبيع فيه البضاعة. ولقد اعْرضَّ قفاه، وانتفخت ملامح وجهه المستطيل واحتفظت مع ذلك بتناسقها، مما جعل البريق فى عينيه السوداوين يضفى عليه شبابًا فات أوانه، وجاذبية تستر ذلك الأوان. غير أنه لا يرفع عينيه فى امرأة إلا مخفوضتين، وإذا خاطب النساء خاطبهن بأدب جم: يا خاله فلانة، يا جدتى علانة، يا أم فلان.. كذلك يخاطب الرجال برفق شديد كأنهم جميعًا أطفال يسايسهم. لا يحتد لسانه فى أى مناقشة حتى لو كانت تمس أخطر أمور حياته، لا يحتد إلا عند الكلام فى السياسة، إذ هو مغرم بالسياسة كأنها مزاج وكيف يتعاطاه بلذة فائقة. وإن جاءت سيرة هتلر

أو موسولينى أو النحاس باشا أو سعد زغلول أو غيره دبَّ النشاط فى عينيه وارتعش كيانه وتأهب للخوض فى أجمل حديث فى الدنيا. وهو إلى ذلك يعرف القراءة لكنه لا يعرف الكتابة، يقرأ الجرنان بطلاقة ويعجز عن كتابة جواب. وأزيد من دفتر الشكك لا كتابة عنده، حيث القلم الكوبيا المربوط فى الدفتر بدوبارة يحرث فوق الورق أخاديد ومتبعجات فى شكل أرقام وأسماء، وهى مجرد رموز لا يقرؤها سواه. الأغرب من ذلك أنه خطيب سياسى مفوه، كل نواب الدائرة يسعون لكسبه، ثم إنه رئيس لجمعية تعاونية شارك فى تكوينها ـ ضمن جمعيات كثيرة ـ لكى تعاون الفلاح والعامل. يجتمع أعضاؤها فى مندرته، يستقبلون أفندية وعمالاً من كفر الدوار والمحلة الكبرى ودسوق، يخطبون ويتكلمون كلامًا كبيرًا عن الوعى العمالى وجهل الفلاح وساعات العمل والاستعمار والصهيونية. ودائمًا نظيف الثياب كأنه يغيرها مع صلاة كل فرض.

أما محمد مصباح فإنه من كبار التجار وإن كان لا يفتح دكانًا ولا مخزنًا ولا يقتنى عمالاً، هو يملك الفلوس فحسب، لا ليصرفها بل ليدخرها. أنت فلاح شاطر وسيرتك حسنة ويلزمك بقرة تدور فى الساقية وتدر لبنًا؟ هو يشتريها لك من سوق الشين ويتركها عندك لتقوم أنت بالعلف والرعاية ويكون له نصف ما تدره البقرة من لبن ونصف ما يباع من خلفتها. أنت رجل صاحب مصاريف ويلزمك فلوس أو لا قدر

الله وقعت فى أزمة مفاجئة؟ محمد مصباح يقرضك على المحصول. عند الحصاد يجمع محصولاً أكبر من محاصيل الفلاحين، يبيعه للتجار وهو فى الأجران. فلما قامت الحرب صار يجمع المحاصيل فى مكان خفى ليبيعها بالكيلة والقدح زاعمًا لدى كل بيعة أن هذه الكيلة أو هذا القدح هو آخر ما عنده.

هو مكلبظ الوجه أحمره، غليظ الشفتين، يوحى منظره بأنه أكل لتوه ديكًا روميًا. وذلك صحيح، فإنه يموت فى الأكل. وقد تعود بيته أن يرسل إليه البرام المعمر حيث يجلس فى أى دار، فلا يتورع عن تشمير ذراعيه ليأتى على البرام كله فى دقائق. والمعمر دائمًا حمام لأن لديه أبراجًا كبيرة كثيرة. وقد تعود أصدقاؤه أن يتقبلوا ذلك بصدر رحب. وكثيرًا ما تتطوع أمى بتقديم طبق من اللفت والليمون والباذنجان المخلل مع أن الرجل مفتوح النفس من حاله. ويتطوع واحد منا فى الصباح بتوصيل البرام إلى داره، وقد يرجع بفردتى حمام على سبيل الهدية. فما أن ينتهى هو من الأكل حتى يمسك بالجوزة ليشرب كرسى الدخان فى بطء شديد، حيث تنتفخ عروق رقبته وينزرد وجهه، ويتلمس أى سبب لينفجر ضاحكًا بصوت صاعق رنان كصوت جرس الكنيسة ويصير رأسه كالكرة الملتهبة يتقافز فوق عنقه التخين . هو كذلك مغرم بالنكتة، وكل نكتة سياسية همجية قد لا يفهمها السامع ولكنه مع ذلك يضحك ربما من شدة

هيافتها. مغرم كذلك بشراء الأشياء بالشروة، عمره ما اشترى من الشيء شيئًا واحدًا: العنب بالقفص وربما بالأقفاص، والطماطم بالمشنة، والسمك بالجنبة كاملة ودون ميزان شرط أن يغطيها ولا يطيل الفصال حتى لا يراها أحد فينظرها. ومرة صادف فى الدرق رجلاً يبيع القباقيب، فاشترى منه الكمية كلها. فظل أبى شهورًا طويلة يسخر منه ويقترح عليه أن يشارك عليها الفلاحين، ومن حين لآخر يسأله عن صحة القباقيب، مع أن الرجل تبرع بها فى النهاية لمساجد البلدة لينتفع بها المصلون عند الوضوء.

وأما محمود جميل فإنه فى الأصل نجّار سواقى شاطر، دقرم، يفهم فى كل شىء، يحب الابتكارات الجديدة حبًا جنونيًا. ما أن يرى آلة جديدة ذات فكرة طريفة حتى يعكف عليها فلا يهدأ له بال حتى يعرف فكرتها، كيف تدور وكيف تعمل وعلى أى طريقة ركبت، ثم لا يلبث حتى يفعل مثلها أو شيئًا شبيهًا بها. كان يتفنن فى صنع دواليب الملابس للأعيان، بأشكال زخرفية متقنة يأخذها من بعض المجلات، يبتكر لها مفصلات عملية ومقابض عاجية وكوالين تختفى تمامًا. كذلك كان متخصصًا فى صنع الحقائب للمدرسين والتلاميذ، من الأبلكاش المدهون. وقد اخترع ذات يوم مرجيحة الصناديق، ولا ندرى أين رآها، لكننا ذات يوم عيد طلعنا القرافة وتجولنا فى السوق المقام فى سفحها احتفالاً بالعيد، ففوجئنا بصرح حديدى منصوب فى الأرض، كقاعدة

لطارتين كبيرتين مثل ترس الساقية، وعدد من الصناديق الملونة ترتفع فى الهواء لتهبط وتختفى برهة لتعود فترتفع وهكذا. فى كل صندوق يجلس طفل أو أكثر يصيح من الغبطة. كل أطفال البلدة وشبابها وبعض رجالها الهايفين ركبوا مرجيحة الصناديق يومها. ثم إنها باتت ملمحًا رئيسيًا فى يوم العيد من كل عام.

وهو أول من اشترى ماكينة للتذرية بدلاً من المذراة اليدوية، عبارة عن بضعة مناخل فوق بعضها داخل صندوق خشبى، لها حنك مفتوح على الدوام ينفث تراب القشرة، ومنه نرى المناخل رائحة غادية تحت بعضها فى حركات متعاكسة، ولها فتحة على السطح كالقادوس يدلق فيها القمح المدروس بترابه، ولها كذلك مؤخرة منبعجة من الصاج النظيف ذات فتحة كالشرم ينزل منه القمح النظيف خاليًا من القشرة، يستأجرها الفلاحون بالنقود أو بالمحصول، حتى اغتنى، ووسع ورشته فغدت كالجرن، وسافر إلى دسوق فتعرف على كبار تجار الأخشاب، وحول ورشته إلى شادر يمتلئ بجميع أنواع الأخشاب من ألواح ومرائن وعروق، وسواق كاملة بكل معداتها الخشبية والحديدية، وجميع أنواع الحدايد والكوالين والمسامير والمفصلات والأقفال والدرافيل، لم يدفع ثمن كل ذلك بالطبع، إنما دفع مبلغًا يسيرًا جدًا للتاجر الكبير، على أن يدفع الباقى مقسطًا تقسيطًا مريحًا. ما كاد يفعل ذلك حتى قامت الحرب، وعزّت الأشياء، فأخفى

البضائع وصار يبيعها بأغلى الأسعار، وكل بضعة شهور نسمع أنه اشترى فدانًا من فلان الفلانى، أو اشترى حصانًا من علان ابن ترتان. ثم ما يلبث حتى يبيع ما اشترى، وسرعان ما ينكشف حاله ويبدو مفلسًا لفترة قد تقصر أو تطول ولكن الفلوس لابد أن تستأنف جريانها فى يديه من جديد. والجميع يعرف أن الأفيون الذى يمص جسده على الدوام يمص كذلك نقوده على الدوام. وسواء كان مفلسًا أو فى رغد فإنه لا يلبس إلا كالح الثياب، وأحيانًا يمضى فى شوارع البلدة بالفانلة ذات الكم الطويل وفوقها الصديرى، مع السروال أبو دكه بشراريب، حاملاً عدة النجارة، المنشار معلق فى كتفه النحيف، والقادوم والشاكوش والفارة فى يديه.

طويل كالنخلة الفارعة، مريرب، مستطيل الرقبة والوجه، بملامح صلبة صارمة لوحتها الشمس وأحرقت بياضها القديم وصبغت عينيه الملونتين بظلال كابية. يلبس فوق رأسه المدبب طاقية من الصوف الملون طويلة كالكأس. فى مشيته إيقاع صعود وهبوط معًا، حيث يرتفع صدره مع كتفيه ويديه ليهبط بين كل خطوة والتى تليها، كمشية المصارع يدب نحو خصمه متمرًا متحينًا فرصة للانقضاض. الشعر الكثيف يغطى أسفل ساقيه كالوبرة. فى شفتيه غلظة وشهوانية ينمان عن ثور هائج شرس مخفى فى قاع بعيد جدًا من عينيه اللتين إن ركزهما فى امرأة خرّت فى الحال واعتراها خجل وارتباك. إذا ضحك مد بوزه وفشخ حنكه

بصعوبة، لتبرز أسنانه الأمامية الكبيرة مصبوغة بلون الشاى وسواد التدخين الذى لا ينقطع لدرجة أنه - فيما يشاع - يصحو من النوم - إذا نام - فى موعد كل سيجارة ليشربها بإخلاص ونهم، وقيل إن لحظات نومه طول حياته هى اللحظات الخاطفة التى يغفو فيها بين كل نفس من السيجارة والذى يليه.

زير نساء كبير. الناس تحيك حوله حكايات لا تنتهى أبدًا، معظمها قد تصبح كذبة من أول إشارة، لكن الجميع مع ذلك وبرغم ذلك يستلطفون الحكايات ويستحسنونها فيحكونها على سبيل التندر والطرافة، فيصدقها السذج الأغرار ويرددونها باعتبارها قد حدثت بالفعل، وربما بالغ أحدهم وسرح بخيال الآخرين فيؤكد لهم أنه شاهد عيان، كان عائدًا من الحقل ذات فجرية قمرية فإذا به يرى شبحًا عند بحر السبيل.. إلخ إلخ، أو أنه كان ذاهبًا يصلى الفجر فمر من الحارة الفلانية فرأى شبحًا يتسلل فى الخفاء خارجًا من البيت الفلانى.. إلخ إلخ، ولقد شهدت ميلاد معظم هذه الحكايات فى مندرتنا فى عمق الليل على إيقاع الجوزة وصوت غليان الشاى فى البراد فوق منقد النار، وصوت الضحكات الصافية التى تتفلت فجأة مدوية بعد طول همس وودودة غامضة. رغم ذلك فأبى يخشاه بينه وبين نفسه، لا يؤامنه على دخول دارنا فى غيبته أو غيبة أحد من أبناء عمومتى الكثيرين جدًا والذين لابد أن تنشق الأرض عن

أحدهم حال قدوم أى ضيف أو زائر يطرق بابنا أو باب دار من دورنا أيًا كانت شخصية الزائر، إذ لا شىء فى نظرهم يسمى صديق العائلة، كما أنه لا وكالة عندهم بغير بواب. ولو ظهرت أمى عفوًا، أو ظهر طيفها من باب الدهليز فيما هم جالسون فإن ليلتها تكون أسود من شعر رأسها، نبيت كلنا فى نكد وعياط يسبقه ضرب مبرح، فما بالك لو بلغهم صوتها فى المندرة ضاحكًا أو متكلمًا أو حتى باكيًا، إن صوت المرأة عورة وإنها إذنْ للكارثة العظمى. ولا تكون العورة عورة بحق وحقيق إلا فى حضور الرجال، وعلى وجه التحديد فى حضور محمود جميل، الذى أراح الناس أنفسهم فى النهاية وأشاعوا أنه قد خاوته جنية.

المثير لدهشتى أنه أكثر حميمية لأبى دون غيره من أصدقائه الذين يسهرون معه فى المندرة كل ليلة. يكون دائمًا آخر من ينصرف قبل وصول الفجر بساعة. ولم أكن أجد لذلك تفسيرًا سوى أنه يجيد القراءة، وبصره حديد، يقرأ فى ضوء المصباح نمرة خمسة كما يقرأ فى الظهيرة. فى حين أن أبى ضعيف البصر بحكم الطعن فى السن وإن ظل قوى البدن كثور وأسعد اللحظات فى حياته هى تلك التى يختلسها من بقية أصدقائه قبل قدومهم وبعد انصرافهم، حيث ينظر إلى محمود جميل نظرة ذات معنى، يتبعها بقوله: «مش حنخلص أبو زيد من الأسر؟!»، فيمد محمود جميل يده الطويلة السرحة المغطاة بالشعر وقشف العمل الدائب، إلى

طاقة الشباك المجاور، ليسحب الجزء الكذا من السيرة الهلالية ويبدأ فى القراءة من حيث توقفا ليلة أمس حينما وقع أبو زيد الهلالى أسيرًا. أبى وهو لاشك يعرفان هذه السيرة سطرًا سطرًا ويعرفان أن أبا زيد سوف يحدث له كذا وكيت بالتفصيل، ومع ذلك فلا حد لمتعتهما وهما يستقرئان ذلك مثنى وثلاث ورباع دون ملل. أرضية الشباك كانت حافلة بعنترة وذات الهمة وسيف بن ذى يزن وحمزة البهلوان وألف ليلة وليلة وروايات جرجى زيدان عن تاريخ الإسلام، من عذراء قريش إلى شارل وعبدالرحمن والمملوك الشارد وأرمانوسة المصرية وفتاة غسان وفتاة القيروان، وكتاب شمس المعارف الكبرى وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين، ومصاحف كاملة وأجزاء من مصاحف، وتفسير الجلالين وصحيح البخارى. ولقد شاهدتهما يقرآن فى كل ذلك بعدد شعر رأسى من الليالى الطوال.

الوحيد الذى كان يجاريهما فى حب الاستماع بنفس الحماسة هو الشيخ على بقوش أو الشيخ «كمبلها» كما يسمونه فى مندرتنا وفى بعض أنحاء البلدة. ذلك أنه أعمى العينين مغلقهما تمامًا، عيناه كبؤرتين خزقتهما أصابع مجهولة، ثم التأمت جراحهما فانغلقتا وبقيت شفرة الجرح خطًا أحمر فى كل عين. حين يقرأ القرآن يفرد كفه واضعًا إبهامه فى أذنه وبنصره فى إحدى العينين كأنه يضغط على أزرار يخرج على إثرها صوته، إذ ينتفخ عنقه وهو يحزق،

وتريد ملامحه وتتضغط فى بعضها حتى ليكاد يخرج عن الوجه وجه آخر. صوته قبيح جدًا إلى حد لا يمكن احتماله لبرهة واحدة، وربما لهذا السبب وحده يتقبله الناس ويستمعون إليه درءاً للشعور بالحرج، بل إنهم يغدقون عليه من أوصاف الاستحسان ما قد لا يحظى به أصحاب أجمل الأصوات. يعيش على قراءة الرواتب فى البيوت حيث يتنقل من بيت إلى بيت، ليجلس فى المكان المعهود فيقرأ سورة أو بعض سورة؛ ثم يصدق وينصرف، فى مقابل بعض كيلات من المحاصيل الزراعية عند الحصاد، ناهيك عن أيام الخميس والجمعة والأعياد، إذ يطلع القرافة لقراءة القرآن على أرواح الموتى ويعود محملاً بأجولة من العيش والقرص والتمر والخروب، مع بعض قروش.

يمشى بجنبه، جنب الحائط، متحسسًا الأرض بعكازه الأعوج. كل السكك والشوارع مرسومة فى دماغه خطوة خطوة، يعرف جيدًا - وبحنكة - متى يحود فيحود، ومتى يستقيم فيستقيم ومتى سيصادف صخرة أو رحاية ثابتة فى الأرض أو مصطبة أو معجنة طوب فى الطريق، فيتفاداها بكل دقة، فى حين ربما سقط فيها المبصرون. يسكن فى حارة ضيقة متعرجة تبعد عن دارنا بشوارع كثيرة متداخلة متفرعة. مع ذلك يحرص على المجىء إلى مندرتنا كل ليلة مهما كان البرد قارسًا، وحتى فى عز اشتداد المطر، حيث تصبح بلدتنا بحرًا متعدد الشوارع والحارات من الطين

السائل والروبة الزرقاء. كنا نفاجأ به يطرق الباب طرقات تنافس صوت الرياح الصرصر العاتية التى تعصف فى الخلاء بأحمال القش والحطب فوق أسطح الدور، صوت كحته المميزة يختلط بصوت الطرق فنعرفه فنفتح له على الفور. وإذ ينفتح الباب تعقد الدهشة ألسنة الجميع، إذ نرى أن العوص لم يلحقه بأكثر مما لحق المبصرين، مجرد طين فى حذائه الميرى ذى الرقبة والرباط، الذى اشتراه من مخلفات الجيش، فلا يكون عليه أكثر من أن يخلعه ويسنده على عتبة المندرة من الخارج ويدلف داخلاً يسبقه صوت السلام عليكم، ثم يأخذ سمته إلى الركن الذى اعتاد الجلوس فيه. فإن طالت الدقائق الزمنية وافتقد صوت أحد من أعضاء القعدة الليلية الدائمة الدافئة سأل عنه فى الحال. فإن قيل له إن المطر قد منعه فإنه يرفض التصديق ويختلق له عذرًا آخر قد يكون السبب فى منعه، وربما تطوع بالذهاب لسحبه.

وكانت القعدة تضم ضريرًا آخر هو الشيخ زيدان زيدان الحاصل على شهادة العالمية من الأزهر الشريف، ويسمونه فى بلدتنا بالقاضى، لأنه كان يحكم فى مسائل الزواج والطلاق حتى لا يكلف الناس مشقة الذهاب إلى المحكمة فى البندر، إذ ما يكاد الخلاف ينشب بين رجل وزوجه، أو بين خاطب ود وصهره، حتى ترتفع الأصوات صائحة «بينا ع الشيخ زيدان القاضى! نعرف رأى الشرع!»، وفى هياج وثرثرة

من جانبهم، وصبر وطول بال من جانبه، يتمكن من معرفة كل صغيرة وكبيرة فى الموضوع بل يتمكن من معرفة الأسباب الحقيقية للخلاف وهى فى العادة تكون مخفية وراء أسباب أخرى تبدو قوية وداعية للخلاف بالفعل، وحينئذ ينطق بالحكم الصحيح المناسب، فلا يجرؤ على معارضته أحد، ولا يستطيع التشكيك فى ذمته، لأنه فى العادة لا يتقاضى أجرًا على ذلك ولا يقبل حتى كلمة شكر، بل إنه قد يحكم لصالح أحد الطرفين ثم ينهال عليه لومًا وتقريعًا وتأنيبًا، فهو فى الواقع غير محتاج للأجر، ويعيش من ريع ثلاثة أفدنة ورثها عن أبيه ويفلحها أولاد عمه.

وجوده كان ضروريًا فى القعدة، لأنه بمثابة القاموس السياسى والتاريخى والدينى؛ إن غاب عن لسانهم اسم زعيم فعل كذا، فإنه يسعفهم به فى الحال مقرونا بيوم الفعل وتاريخه وإن غمضت عليهم مسألة دينية حول الصلاة أو الصوم أو الحج أو الحلال والحرام فإنه يفتيهم فى الحال. بلسان الشيخ المراغى والشيخ بخيت والشيخ الخضر حسين. فإن لم يقتنع القوم فابن تيمية أو الإمام الشافعى أو على بن أبى طالب. هو صاحب ذاكرة تبدو لى أحيانًا كأنها صندوق سحرى ملىء بمئات المبصرين من عمّال يمدونه فى الحال بمعلومات لا نهاية لها، حتى إنه كثيرًا ما ينسيهم الكتب ويستقل بالحديث ربما طول الليل، فى سليمان الحلبى وكيف قتل الجنرال كليبر، عن الشيخ الدرديرى وكيف تحدى

الأمراء المماليك وهزمهم، عن الخيول الفرنسية التى دهست سجاجيد الصلاة فى صحن الأزهر، عن عمر مكرم، عن المغاربة والأفارقة والهنود والشوام من مجاورى الأزهر أصحاب الأروقة، أما إن تطرق الحديث إلى أحمد عرابى وثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ورفاقه فإن أبى سرعان ما يصادره فى الحال، مدافعًا عن أرضه التى يخبرها جيدًا، ثم يتملك دفة الحديث فلا يجد من يراجعه فى شىء.

الشيخ زيدان زيدان لم يكن فى صلابة الشيخ بقوش كعبلها ولا جرأته، إذ يكفى أن يسمع من يقول: الدنيا ناويه تمطر، لكى يمتنع عن الخروج من البيت أو ينهض فجأة يطلب من يسحبه إلى أول الشارع العمومى - شارع داير الناحية - وفى معظم الليالى الممطرة كان الشيخ بقوش يصر على الذهاب إلى دار الشيخ زيدان زيدان ليسحبه ويجىء به إلى مندرتنا لولا أن الشيخ زيدان لم يكن يطاوعه.

***

كل هؤلاء لديهم منادر يستقبلون فيها الضيوف من أقارب أو أجانب، ويهمهم وضع ترابيزة أنيقة ثمينة فى وسط المندرة، وعلى وجه التحديد ترابيزتنا. كلهم لهذا - يؤكد أبى باستمرار - طامعون فى الترابيزة لى يزينوا بها منادرهم، وهم ليسوا أفضل منا، ولا أعرق أصلاً، صحيح أننا لا نستخدم هذه الترابيزة الآن بل نخفيها تحت المتروكات، ولكنها فى

النهاية ملك لنا نستطيع إبرازها وقتما نشاء. ومن يدرى؟ لعل الأمور تنقلب فجأة لصالحنا من جديد كما هى منقلبة الآن لصالحهم. كان أبى يكاد ينطق بهذا المعنى بكل حذافيره، مع تحريف بسيط مهذب، إذ كان يقول لهم كلما جاءوا بسيرة التخلص من الترابيزة:

- «يا اخوانا هو معقول الحالة حتفضل كده؟ أكيد ربنا حيكرمنا ونفسنا تتفتح للأبهة ونبقى نعرضها فى المندرة مع الكراسى اللى تناسبها»!

ولم يكن يغيظه - ويغيظنى أيضًا - سوى هزة رءوسهم فى تسليم مبالغ فيه قائلين: «طبعًا طبعًا! أمال!»، كأنهم يقولون: «ابقى تعالى قابلنى لو حصل!»، بلهجة تدل على أن ذلك مستحيل. غير أن أبى لم يكن يظهر غيظه أبدًا، إنما كان إذا جاءت سيرة الحرب راح يصب جام غضبه على الحرب وسنينها السوداء وكيف أنها قلبت موازين الدنيا فجعلت عاليها واطيها وجعلت النذل يتحكم فى ابن الأصول والكلب يملك مصير السبع، ثم يعرج بالحديث إلى الوزارة وخيبتها وحزب الوفد وتقاعسه ورائحة المماينة البادية فى سلوكه واستجابته لغزل الاستعمار، ويشير إلى أننا لو بقينا على هذه الحال سنة أخرى فلابد أن تأكل الناس بعضها ولابد للمركوب أن يقلب راكبه على الأرض أو تتهاوى به قواه.

حينئذ يرمقه عبدالفتاح الزيات بنظرة هادئة. وفى رصانة باردة يقول كأنه يقرر حقيقة دستورية:

- «آه! إذن فقد جعلناك رئيسًا للوزراء يا عبدالودود أفندى! فماذا أنت فاعل؟ هه! أرنى الآن ماذا ستفعل؟ أنت الآن رئيسٌ لوزراء مصر! والحالة كما ترى! العالم يأكل فى بعضه، ومصر غارقة فى الوحل والعبودية والديون والجهل والفقر والمرض! والمتكئون فيها طائفة من أصحاب الأطيان والأرصدة يستقوون علينا بالإنجليز فى مقابل أن يكونوا خدمًا للإنجليز وعونًا لهم علينا بالحماية الأجنبية! فماذا أنت فاعل لنا يا حضرة صاحب المعالى؟!».

وكان أبى قد تأهب بالفعل لاعتلاء كرسى الوزارة، واعتراه حماس مفاجئ اعتدل فى جلسته عدة مرات، وجعل ينصت لعبدالفتاح الزيات فى استعجال كأنه يستمع إلى بقية المرسوم القاضى بتعيينه، ولكن يبدو أنه وجد المهمة صعبة جدًا بل مستحيلة. ولحظتها كان بجواره طرطور من الورق المقوى على شكل طرطور شكوكو اشتراه أحدنا فى العيد الفائت وانمحت زخارفه الورقية الملونة وبقى مجرد قرطاس سميك رأى أبى أن يحتفظ به لكى نستخدمه كقمع نفرغ فيه الجاز أو الزيت من وعاء إلى وعاء. لحظة ذاك اكتشف أبى وظيفة جديدة له، فاستخدمه كنفير، وأمسكه قائلاً لمن حوله:

- «تعرفوا حاعمل إيه بعدما بقيت رئيس وزارة؟!».

قالوا جميعًا فى شغف حقيقى:

- «تعمل إيه؟!».

وضع النفير على شفتيه قائلاً:

- «كنت ألم الشعب كله فى ميدان عابدين وأهتف : تحيا الوزارة الزعلوكية! قولوا ورايا: تحيا الوزارة الزعلوكية!».

ثم أزاح النفير وصاح فى الموجودين:

- «ما تردوا ورايا: تحيا الوزارة الزعلوكية!».

فلم يرد أحد. فإذا بأبى يرمى النفير فى وجوههم صائحًا فى غضب حقيقى:

- «عليَّ الطلاق بالتلاتة انتوا بتكرهونى! يلا قوموا روحوا! أنا ما أعاشرش ناس بتكرهنى وتكره لى الخير! يلا اتفضلوا مع السلامة!!».

لحظتها فتشت فى وجه أبى عن ظل للمزاح فلم أجد، لم أجد إلا غضبًا عميقًا احمرت له عيناه وامتلأتا بالحزن والألم، والجميع يتفجرون ضحكًا عميقًا تنهمر له الدموع من المآقى، فإذا أبى قد ركس على ركبتيه مشوحًا كأنه يذب حشرة:

ـ «كل واحد يقهقه فى داره! إحنا مش فاتحينها مضحكة هنا! يلا!».

فشوح محمد مصباح فى وجهه قائلاً:

ـ «عليَّ الطلاق ما احنا قايمين!! هى الوزارة بالدراع واللا إيه؟!».

وقال محمود جميل:

ـ «أما دى تنكتب فى الجرايد بصحيح! قدّر يا أخى إننا لقيناك ما تصلحش للوزارة! نسيبك ولا نرفدك؟ إحنا دلوقت ما نوافقش على تعيينك أصلاً!».

وفى جدية بالغة قال الشيخ «كعبلها» كأنه يخطب على المنبر فى كافة المسلمين:

ـ «مصيبتنا يا اخوانا إننا لا ندقق فى اختيار من يحكمنا! يضربنا الحكام بالنعال صبح مساء فلا نفكر فى محاكمتهم أو حتى نعمل على إسقاطهم! فمن باب أولى يجب أن يكون لنا رأى فى اختيارهم قبل اختيارهم!!».

وبتلقائية شديدة ـ أصله على نياته ـ قال رمضان ابن عمتى وهو يرحل القوالح المشتعلة فوق حجر الدخان بتأن:

ـ «أى والله صدقت يا عم الشيخ على!».

فسلقه أبى بنظرة أشد لسعًا من القوالح المشتعلة، وقال فى انكسار خاطر:

- «حتى أنت يا رمضان؟ والله عال! هزلت على آخر الزمن! والله إنكم جميعًا ناماردة تستأهلون ما يجرى لكم!».

واعتدل فى جلسته جاذبًا الجوزة من يد رمضان بغيظ دفين، وراح يشفط الأنفاس على مهل كأنه يطفئ نار التوتر فى صدره، وظهر على وجهه كأنه اكتشف خيانة الأصدقاء له بعد طول عشرة وإخلاص.

ليلتها انتهت السهرة على غير ما يرام، إذ انصرفوا وراء بعضهم فى هدوء وتكتم، حتى محمود جميل مدد ساقيه وترك قدميه تدوران كحدوة المغناطيس تحت الكنبة لاجتذاب بلغته الحمراء الكالحة من بين الكراكيب، حتى إذا ما استقرت كل قدم فى فردتها تمطع فطقطقت كل مفاصله، ونهض ملقيًا السلام فيما هو يمضى غير منتظر أى رد. فرد أبى من بين أسنانه. وبقى الشيخ «كعبلها» وحده فترة لا بأس بها، متنحًا بوجهه المشدود كجلد الطبلة وعينيه المخزقتين المغلقتين. أغلب الظن أنه كان يريد بمكثه تقديم شىء من الاعتذار عما يكون قد أساء لأبى من حديثه الذى لم يكن يقصد به سوى المزاح. لكنه لم يقل شيئًا ظل قائمًا فى قعدته كالصنم، وضوء المصباح المعلق فى السقف يعكس ظل رأسه ورقبته وكتفيه على الحائط المجاور كشاهد المقبرة. فى حين تمدد أبى على الكنبة يتهيأ للنوم ويتنحنح بين لحظة وأخرى مجاملة للشيخ «كعبلها» كأنه يجدد التحية بالنحنحة، إلى أن

أخرج الشيخ «كعبلها» ساعته من جيب الصديرى ففتحها وتحسس أرقامها بأطراف أصابعه ثم قال : «ياه! المشى وجب!»، وأنزل ساقيه عن الكنبة فنزلت قدمه فى قلب الحذاء مباشرة، ثم سحب عصاه ومضى يترنح كبندول الساعة يمنة ويسرة فى اتجاه الباب.

* * *

العجيب أن العلاقة توترت بعد ذلك، وكف معظمهم عن المجىء فيما عدا الشيخ زيدان زيدان وابن عمتى، حيث يجلسون فى كثير من الصمت، لا يتحدثون فى السياسة أبدًا، إلا من قبيل التعليقات السريعة العابرة. ثم اختفى حديث السياسة تقريبًا وحل محله الحديث فى مرضنا العضال، أنا وأخى، حيث كان الهزال يدب فى أوصالنا على مهل، حتى صرنا جلدًا على عظم، مع انتفاخ كبير فى البطن بدأ يظهر بصورة مقلقة كأننا حوامل فى الشهر التاسع. وراح الشيخ زيدان زيدان القاضى يفتى فى أصل مرضنا مقترحًا ألوانًا من العلاج، ويقرأ علينا - من دماغه - نصوصًا من كتب الطب والحكمة، وأقوالاً من مأثورات المدعو أبو قراط والمدعو أبو بكر الرازى والمدعو ابن سينا. حينئذ كنت أمعن فى الإنصات إليه بكل حواسى المنتبهة برغم الهزال والخواء، فكان يدهشنى أنه يصف بعض الأوجاع التى ألاقيها فى البطن والدماغ والكتفين والظهر فكأننى

حدثته عنها من قبل مع أننى لم أكن قادرًا فى الأصل على التحدث.

وكانت أمى هى الأخرى تتصت إليه وقد انتفخ وجهها وتشوش شعرها من فرط الانتباه والاستعداد لالتقاط كل كلمة قد يخف بها صوته، فيما هى جالسة بارشة على الأرض خلف الباب الفاصل بين المندرة والخزنة، ويظهر شبحها من حين لحين فى تلصص إذ تقترب بأذنيها، فأراها من موقعى على الكنبة المواجهة فى جلستى الأزلية وبجوارى أخى الصغير، لاهٍ عما حوله تمامًا، مع أننى أسبق منه فى المرض. وكنت أعرف أن أمى التى لا تعرف القراءة ولا الكتابة وليس فى طوقها فهم حرف واحد من كلام الشيخ زيدان المعتق، تحاول مع ذلك فهم كلامه بالفهلوة لكى تبادر بتنفيذ ما تفهمه من نصائحه أو على الأقل تعرف حقيقة أمر مرضنا هذا الذى حارت فى فهمه، أو حتى تفهم الفرق بين الأسماء التى يرسلها فى الحديث فلا نعرف إن كانت أسماء عطارة تدخل فى الوصفة أم أنها أسماء ناس اخترعوها. أما أبى فكان يستمع إلى كلام الشيخ زيدان القاضى بكثير من عدم حماس الذى سمع هذا الكلام من قبل وقرأه وتأكد من عدم جدوى الأخذ والرد فيه.

لم تستفد أمى من كلام الشيخ زيدان القاضى أى شىء، وإذ أحست أن كلامه جد خطير. إنما استفادت من كلمة

عابرة قالها الشيخ على بقوش «كعبلها» الذى عاود المجىء، إذ قال إنه كان يعرف شخصًا فى عزبة الطوال مرض ابنه بنفس المرض الذى عندنا، وكان غنيًا من الأعيان، فلف به على حكماء البندر وصرف عليه الجلد والسقط بغير جدوى، فرأى الرجل فى المنام إلهامًا يوجه نظره إلى بيوت أولياء الله الصالحين لعلهم يتوسطون لدى الله فى رفع البلاء عن ولده؛ فما أصبح الصباح حتى صحب ولده ولف به على جميع الأضرحة واستوسطهم إلى الله، فلم تمض أيام حتى تماثل الولد للشفاء.

وهكذا قررت أمى أن تفعل نفس الشىء، فنادت الشيخ «كعبلها» فى السر، وحدثته من وراء ضلفة الباب، فوصف لها ما ينبغى علينا أن نفعله بالضبط. وفى الصباح كانت أمى قد بيتت على حمارتين من حمير أبناء عمومتى، وبيتت على ولدين، وبعد صلاة الفجر لفت أمى كل واحد منا فى بطانية، وأركبتنا كل واحد على حمار، يسنده ولد قوى، وركبت هى خلف أخى. بدأنا بأولياء بلدتنا وهم أربعة : سيدى سليمان العجمى وسيدى هارون وسيدى مطرف بن عبدالله وسيدى على أبو دبوس. نطرق باب الضريح فيرد علينا خادم الضريح من دار مجاورة. تطلب أمى مفتاح الضريح لتضع نذرًا فى الصندوق. يجرى الخادم فيفتح، يظل يتلكأ حتى يراها قد فكت عقدة فى عصبة رأسها وانتزعت منها عشرين خردة - مليمان ونصف - ووضعتهما فى فتحة

الصندوق، ثم تطلب من الخادم حلة ماء، فيجىء بها، فتدلقها على باب الضريح فتنظفها جيدًا حتى تصير رخامتها بيضاء، ثم تأمرنى أنا وأخى بأن ننحنى على رخامة العتبة، التى يدوس فوقها الناس بأقدامهم، ونلحسها بلساننا بقعة بقعة من أولها إلى آخرها. هكذا نصحها الشيخ «كعبلها». وقد فعلنا، ورطوبة الرخامة الخشنة بطعم التراب والعفن ظلت ملتصقة بلسانى طول النهار من ضريح إلى ضريح. وبعد يومين قمنا بجولة أخرى فى بلدة مجاورة. وبعدها بيومين قمنا بالسفر إلى دسوق فلحسنا عتبة ضريح الدسوقى. وعدنا آخر النهار والغثيان ينفض أمعائى كلها كل برهة فلا ينقذنى منه سوى الاستغراق فى غيبوبة التعب، فبمجرد أن أفيق يكون أول شىء أحس به هو العتب الذى انطبع فوق لسانى.

* * *

مكثنا بعدها شهورًا طويلة ننتظر معجزة الشفاء، والمرض لا يزداد إلا تمكنًا، وقد خلف لحس العتب فى لسانى بصمة محفورة لا تريد أن تنمحى، أحاول دائمًا إزالتها بحك لسانى فى سقف حلقى وأسنانى دون جدوى، وطعم التراب والعفن يملأ خياشيمى. ولقد بات منظرنا جميعًا عجبًا أى عجب: أنا وأخى متكوران على الكنبة لا نقوى على الحركة أو الكلام، نشرد فى فراغ المندرة بعيون صفراء ذابلة، وعلى

الباب تبرش أمى واضعة يدها على خدها غارقة فى الحزن والشرود، والدموع تسح من عينيها بلا انقطاع، وهى تتمخط وتمسح الدموع فى ذيل جلبابها الأسود الكالح، فى حين تربع أبى شاردًا يبسبس بشفتيه أغلب الظن أنه يختم صلاة طويلة ختامًا لا ينتهى أبدًا، يقطعه بين الحين والحين بتهيدة عميقة يتبعها بقوله: لا إله إلا الله اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله. صرنا مجموعة من المتهمين بعد أن كنا اثنين فقط، نجلس كلنا فى انتظار الحكم بإعدامنا.

أمى لم تكن لتفقد ثقتها فى أولياء الله بسهولة، لكنها حينما صرحت بهواجسها للشيخ بقوش «كعبلها»، نبهها إلى أن الأمر لابد أن يكون فيه ثمة خطأ ارتكبناه دون أن ندرى؛ فانبرت أمى تحكى له - بالتفصيل - ما فعلناه، ولا تنسى أن تذكر أنها عند الولى الفلانى كانت تنوى وضع قرش كامل فى صندوق النذور لكنها لم تجد معها سوى تعريفة واحدة فوضعتها على أن تعود فى يوم ما وتضع بقية القرش، فلما جاءت عند ذكر القول بأنها كنست العتب وغسلته قبل أن نلحسه انتفض قائلاً:

- «بس هى دى الغلطة الكبيرة! إزاى تغسلى عتبة مطهرة، لازم تتلحس على وضعها! وإلا فإيه الفايدة يا ست هانم؟ الولى لما يشوفك غسلتى عتبته يتغاظ منك طبعًا! إنتى لازم تصلحى الغلطة وتخلى العيال يلحسوا العتب من غير ما تغسليه!!! عشان الولى ما ينجرحش شعوره!!!».

وهكذا بات علينا أن نقوم بالعملية كلها من أول وجديد، بأن نلحس العتب وهى على قذارتها، بآثار الأقدام عليها. كانت عملية مرعبة، فوجدت فى نفسى قوة على الصراخ، لكنهم حملونى قسرًا فحاولت أن أضع فمى على العتبة موهمًا بأننى الحس، ولن أمى كانت واقفة لى ولأخى بالمرصاد، تريد أن ترى منظر العتبة وقد خرجت من تحت لسانى نظيفة كالفل. ولقد زعمت بعد العتبة الأولى أننى قد تماثلت للشفاء، وبعد العتبة الثانية أعلنت أننى سأستأنف الذهاب إلى المدرسة من غد.

رحبوا جميعًا بهذه الفكرة. ففى الصباح ارتديت ملابسى وأنا أترنح وأتنقل بصعوبة. حملت مخلاتى التى هجرتها طويلاً بكتبها التى لم أعد أعرف فيها شيئًا. تكفلت أختى الكبرى بتوصيلى إلى المدرسة، فقطعنا الطريق إليها فى أكثر من نصف ساعة مع أنها لا تبعد عن دارنا بأكثر من خمس دقائق.. وحين أتى ناظر المدرسة اشمأز من منظرى وتأفف، واحتج بأن مقعدى قد احتله آخر، وأننى قد تخلفت عن الفصل، وموعد الامتحان على الأبواب، فخير لى أن أستريح فى الدار حتى الشفاء، لأستأنف الدراسة فى العام المقبل. فعدنا إلى الدار، وطوال الطريق لم أكف عن البكاء الصامت.

حين اقتربنا من دارنا جابهنا صراخ ملتاع وهيجان يتجمع أمام باب دارنا، فما كدنا نخترق الزحام، وندخل حتى فوجئنا

بأمى قد صبغت وجهها بالنيلة من طين البرك، وراحت تلطم خديها، وتأخذ من تراب الأرض وتضع فوق رأسها، وتنتحب، ونساء كثيرات يحاولن إثناءها عن ذلك دون جدوى، ورجال يجعرون ويتكلمون ويصيحون فى آن واحد. كانت جثة أخى ممدودة على الكنبة كالعصا ملفوفة بالملاءة، وأبى متقرفص بجوارها مسند رأسه على ركبتيه مندمجًا فى بكاء مكتوم حارق. افزعنى المنظر، فاندفعت أبكى وقد تخلت أختى عنى متلهية بمنظر أمها، فصرت أتخبط بين الأقدام فى الزحام تخنقنى العبرات وتنفض عن صدرى بعض ما تراكم فوقه من وساخة العتب.

إلى أن تهاويت ولم أعد أعى شيئًا أى شىء، وإذ أفقت بعد دهر طويل وجدتنى ممددًا على الكنبة فى دارنا، ولون السواد منتشر فى كل الأرجاء، حتى وجوه الضيوف كافة قد اسودت وكثرت وعراها كثير من الحزن والسأم، وكثرت البسملة والحوقلة وغرقت الدار كلها فى القرآن الكريم يتلوه واحد بعد آخر؛ فإن فرغ الجميع تولى أبى القراءة فى الليل حتى مطلع الفجر.

وفى ذات يوم ميزت بين الضيوف رجلاً غريبًا، فهمت أنه تاجر نحاس من البندر، يزور بلدتنا يوم السوق من كل أسبوع، ليلف الشوارع والحوارى حاملاً جوالاً على كتفه معلقًا فى عامود ميزان برمانة وجنزير، لا ينى يرفع عقيرته

بالصياح مناديًا: «نحاس قديم للبيع، نحاس قديم للبـ .. يـ.. يع!». كان يساوم أمى على بيع الطشت النحاس، ويحلف لها بأغلظ الأيمان أنه أكرمها فى السعر إكراما لخاطر المريض. يعنى أنا - وتحلف له أمى أن الطشت ثقيل ونحاسه نادر وأنه الطشت الذى دخلت به على أبى يوم عرسها؛ فيقول لها: إنه إذن لقديم. فتقول له: إنه إذن لعزيز وغال وما باعته إلا للشديد القوى. فيقول لها إن هذه الأمور لا دخل لها فى البيع والشراء وأنه يشترى النحاس القديم ويبيعه أيضًا على أنه قديم حتى ولو كان جديدًا، وحين انصرف من دارنا بطشت الغسيل كانت أمى تصر طرف منديل رأسها على بضع برايز يتخللها أنصاف فرنكات كثيرة، وكانت تحمد الله قائلة إنها من غد ستسافر بى إلى بندر دسوق لتعرضنى على الحكيم الشهير ألبير فهمى. وجعلت تداعب شعرى وتمسح عرقى باكية مبتسمة معًا تقول إننى سأتفرج على البندر.

* * *

ذهبنا إلى بندر دسوق، دخلنا دارًا قديمة، صعدنا سلمًا متآكلاً يسبح فى الظلام والرطوبة، حتى دخلنا العيادة فأرقدنى الحكيم ذو النظارة الذهبية والشعر المفلوق اللامع والكرش الضخم والخدود الحمراء، والسماعة المعلقة فى أذنيه.. فوق عارضة خشبية بيضاء عليها مخدة. ثم رفع ثيابى، وصار يتحسس بطنى وضلوعى بأصابع طرية موجعة،

ويأمرنى باسمًا أن أتنفس بقوة، وينقل السماعة بين أماكن متعددة من جسدى، وينصت، ثم غطانى واستدار كالماكينة، وفتح الحقيبة المنبسطة على ترابيزة صغيرة، فأخرج منها دفترًا صار يكتب فيه بسرعة.. وأمى واقفة أمامه تنتظر أن يبلغها نبأ الشفاء فى الحال. وعلى مقربة من باب الحجرة وقف بعض أبناء عمومتى فى خجل وخشية يتابعون ما يجرى. نزع الحكيم الورقة وصار يشير لأمى بالقلم على بعض السطور ويرشدها إلى أن هذا بعد الأكل وهذا قبله، وهذا للحقن فى العضل وذاك سفوف على ريق النوم. ثم تركها واتجه إلى باب الحجرة ناظراً فى ردهة الانتظار صائحًا: اللى بعده. أمى لا تزال واقفة غارقة فى الحيرة والذهول والألم، لكنها حين رأت المريض الآخر قد وقف بجوار العارضة الخشبية ينتظر نزولى ليصعد مكانى تقدمت منى وحملتنى على صدرها خارجة.

كان أبى فى انتظارنا على مقهى تحت العيادة إذ إنه لا يقوى على صعود السلم. وكان يبدو عليه أنه يعرف كل ما جرى فى العيادة بحذافيره، وأنه غير مقتنع به. فما أن رآنا حتى مد يده طالبًا «الروشتة» ثم فردها وبحلق فيها مع ثقته أنه لن يستطيع أن يفك منها حرفًا واحدًا من حروفها الإفرنجية، ثم إنه طواها فى سأم، ومضى بنا فى نفس الشارع. توقف أمام دكان يلعلط بأضواء المعروضات، ملىء بالفتارين الزجاجية المحتشدة بالعلب والزجاجات

والبـرطمـانات الأنيقـة، وعلـى باب داخلى فى المواجـهـة رسم جمجمة، ولافتة مكتوب عليها: أجزاخانة الشفاء.

استقبلنا أفندى شاب يلبس هو الآخر نظارة طبية، لكنه رفيع، متوسط القامة غليظ الشفتين رقيق الصوت، يقف خلف بنك زجاجى. قدم له أبى الورقة المسماة بالروشتة، وشرع هو يستخرج بعض العلب من بعض الفتارين؛ فعاجله أبى قائلاً:

- «من فضلك والله يا دكتور قبل ما تتعب! أحب أعرف الدوا حيتكلف كام؟!».

فحدجه بشىء من التأفف، وترك ما فى يده قائلاً:

- «وماله!!».

ثم أمسك بالقلم الكوبيا المربوط فى بكرة من الورق مكتوب عليه أجزاخانة الشفاء، وقلب ورقة الروشتة وصار يكتب على ظهرها أرقامًا، جمعها فى النهاية قائلاً:

- «تلاته جنيه وستين قرش!».

فصاحت جوقة كبيرة مكونة من أبى وأمى وأبناء عمومتى صيحة استهوال عظيمة:

- «يا نهار إسود!! تلاته جنيه وستين قرش؟!».

وقال أبى مشيرًا إلى جسدى المكوم فوق صدر أمى :

«دانا اتجوزت أمه بتلاته جنيه بس!».

فضحك الشاب قائلاً:

- «خلى عنك يا حاج!».

وقالت أمى وهى تلهث من حملها كأنها تعرف أنها تلعب بورقة خاسرة:

- «ما تقدرش يا خويه تكرمنا فى البيعة دى؟ إلهى ربنا ما يغلب لك وليه! إلهى ربنا ما يوريك! داحنا ناس غلابة وعلى قد حالنا! والولد يا قلب أمه حيخلص بين إيدينا!!».

وصمت الجميع ناظرين إلى الطبيب الشاب كأنهم يترقبون وقع هذه الكلمات عليه، غير أنه وسع ابتسامته ودهنها بلون الحرج الأصفر قائلاً:

- «مش بإيدى والله يا حاجة! دى أسعار الحكومة محدداها! وأنا موظف هنا! ووالله لو كنت أقدر كنت أديكم ببلاش! لكن ربنا يكرمنا جميعًا!».

استدار أبى ليخرج مسرعًا، أغلب الظن ليهرب قبل أن يرى البائع دموعه، بينما ظلت أمى واقفة فى مكانها لا تريم، كأنها لم تسمع شيئًا، كأنها تتعشم أن يراجع البائع نفسه. وبالفعل حدث شىء كهذا، إذ يبدو أن الطبيب الشاب قد أشفق عليها، فإذا هو يتبادل النظر مع رجل ضخم الجثة كان يجلس خلف مكتب على مقربة، ثم تناول برطمانًا كبيرًا،

أفـرغ منه مجموعة أقراص صـغيـرة من الكنين الأصـفـر الذى صـرت أكـرهه كـره العمى، وضـعـهـا فى كيس ورقـى صـغـيـر، وأطبقه، وأعطاه لأمى قائلاً:

ـ «تقـدرى تدى له قـرص بعـد الأكل تلات مـرات كل يوم! لحد ربنا ما يفرجها!».

أحسست بصدمة أمى وخيبة أملها وعدم ثقتها فى هذه الأقـراص. مع ذلك ابتـسـمت وتناولت الكيس قـائلة فى نبـرة مرتعشة كذبذبة الكهرباء فى أعصاب العروق:

ـ «روح إلهى ما تقف وقفتى ولا تحتار حيرتى! إلهى ربنا ما يوقعك فى ضيقة! ولا يذلك لمخلوق!!».

وكنت أحس أن أمى تقـصـد العكس تمامًا، وكـان صـوتهـا ملتاعًا ورنانًا يأخذ طريقه إلى السمـاء مباشرة. وظل صـوتها يكنس الشـارع بما لم أفـهـمـه حتى وصـلنا إلى مـحطة القطار، وهى تعدلنى على صـدرها كل برهة، وقـدمـاى يتخبطان فـوق فـخـذيهـا ويـمـرقـلانهـا فى كل خطوة ولا تقـبل مـع ذلك أن يحملنى عنها أحد، وتقول لى:

ـ «المحطة اهه يا حبيبى! مش حتتفرج على القطر؟»».

وإرضـاء لها فـحسب طلبت أن أمشى، فتركتنى. وكـان أبى قـد سبـقنا إلى شـبـاك التـذاكـر فقـطع لنا تذاكـر وقطع لى نصفًا، فـلامته أمى على ذلك بحـجـة أننى صـغيـر ومـريض.

فقـال لهـا إن ذلك أفضل من أن يطوقنا الكمسارى بضعف الثمن. صعدنا السلم الذى نهبط منه على رصيف الركوب. جلسنا على دكة خشبية خضراء وسط صخب وضجيج مبهج، وأمى لا تكف عن التحدث مع من حولها من سيدات، وفى كل دقيقة تعيد حكاية أمرى وأمر أخى المرحوم من طقطق لسلامو عليكم، وتتلقى الدعاء لى بالشفاء، وترد قائلة:

- «إحنا وانتى يا ختى! ربنا ما يوريكى ولا يصهد قلب حد أبدًا !».

وفى هذه المسافة وحدها أهرقت من الدمع ما يصنع ابحرًا حتى تمنيت الشفاء إكرامًا لخاطرها قبل أن تفقد عينيها.

* * *

تكررت زيارة تاجر النحاس لدارنا عدة مرات، حتى لم يعد فى دارنا شىء يمكن أن يباع. ومع ذلك لم نتمكن من صرف الروشتة كاملة. إلى أن أنقذنا الله بمجىء ستى «فله»، أم أمى، التى تزوجت فى البندر بعد موت جدى، أب أمى. هى امرأة جميلة، أجمل من أمى بكثير، فطول عمرها تعيش فى البندر، وتستحم على الدوام، بعكس أمى التى يعلوها الصدأ باستمرار، وتنتهكها الهموم. وستى لم تنجب سوى بنتين تزوجتا فى سن مبكرة، فبقيت ستى مدة بلا زوج،

فخشيت على نفسها من الفتنة فتزوجت رجلاً يقال إنه تاجر كبير، قومسيونجى معه فلوس على الدوام، ويأكل اللحمة والأرز كل يوم، ويأكل الفاكهة التى توصف عندنا للمرضى فحسب من ذوى اليسار، ويلبس كل يوم جلبابًا نظيفًا غير جلباب الأمس. أما ستى «فلة» فإنها طويلة القامة نحيفة القوام واضحة الأنوثة لا تعترف بسنين العمر، ولهذا فإن زوجها يعشقها ويتمنى رضاءها، ولا يؤخر لها طلبًا، أى أن مرواحى معها لن يتسبب فى ضيقه بل على العكس سيرحب بى كل الترحيب شأن العاشق الذى يرحب بمن يحمل رائحة الأحباب. هكذا قالت لأبى بكل وضوح وهى تبتسم عن سن ذهبية، حينما راجعها فى أمر سفرى معها وبقائى عندها عدة أيام كما طلبت هى.

* * *

ذهبت مع ستى «فلة» إلى بندر مطوبس، حيث كان زوجها المعلم «حميده الجارحى» فى انتظارنا على رصيف المحطة، ليحمل عنا قفة الزيارة التى حملتها ستى من بلدتنا، فيها أرز وبيض وسمن وجبن قديم وبعض فطير مشلتت وملوخية ناشفة.. وفى الواقع فإن ستى «فلة» هى التى اشترت هذه الأشياء من حر مالها، لكن توهم زوجها أن ابنتها - أمى - هى التى حملتها هذه الزيارة من دارها.

رجل ضخم الجثة كشجرة الجميز، تخين الكتفين، مكلبظ الوجه غليظ الملامح، لكن ملامحه طفلية إلى حد كبير. إذا

ابتسم نبتت له غمازتان فى صدغيه، وانفرجت شفتاه عن أسنان كلها من الفضة، مصبوغة بلون الدخان والشاى. صوته أغلظ من جسمه، لكنه منطلق بغير التواء كأنه الهواء النقى. ما أن رآنى حتى حملنى وربت على ظهرى فى عطف وحنان قائلاً:

- «ماله الولد ده صحته مدعبلة كده ليه؟! يا ستار يارب!!».

وقالت ستى فلة:

- «عاوزين نوديه المستشفى بكره!».

قال على الفور :

- «أيوه بس أنا مش حافضى الأسبوع ده!».

قالت ستى:

- «أنا اللى حاروح بيه!».

قال :

- «بالشفا إن شاء الله!».

ونادى حمالاً على كتفه رقم نحاسى ويرتدى جلبابًا أزرق وضع القفة على كتفه، وتقدمنا فصعدنا السلم وهبطنا إلى شوارع البلد الممتلئة بالعربات الكارو وعربات الحنطور التى تخب على الأرض وتطلق الأجراس. كان المساء قد هبط

فامتلأت الشوارع بأضواء الفوانيس المعلقة فوق عواميد طويلة وعلى أصداغ البيوت العالية ذات الشرفات الخشبية والمشربيات وفوق المآذن والقباب، ورائحة أم الفلافل الساخنة تنتشر مختلطة برائحة مازوت القطارات وأدخنة السيارات التى تعوى بزمامير كالجعير الخشن.

أبهجنى المنظر حتى نسيت وجع البطن والصداع. توقفنا أمام بيت قديم متهالك فى أعماق حارة سد ضيقة. دخلنا باباً ينفتح على دهليز مستطيل تطل عليه مجموعة أبواب لقاعات، وثمة نساء يجلسن أمام الأبواب يغسلن الثياب فى طشوت، وإحداهن واضعة أوزة تحت فخذها الممدد العارى وراحت تزغطها بأصابع كأصابع الكفتة، وأخرى جالسة تخيط شرابات بالية. صعدنا سلمًا ضيقًا حلزونيًا، لنصل إلى بسطة قادتنا إلى ردهة أخرى، مشينا فيها قليلاً، ثم توقفنا أمام باب بضلفتين مغلق بقفل كبير كالح. أخرج زوج ستى مفتاحاً مربوطاً فى كتينة، ثم فتح القفل ودفع الباب فانفتح. أزاح القفة ثم دفعها فدخلت. دخلنا فى ظلام دامس. مدت ستى يدها على رف صغير محندق فى أعلى الجدار، ورفعت مسمار شريط المصباح نمرة خمسة. وأشعل زوجها عود كبريت، على ضوئه رفع زجاجة المصباح وأشعل الشريط فارتفع الهباب فوضع فوقه الزجاجة وضبطه لينتشر الضوء الأصفر ويغمر الحجرة.. هناك سرير بعمدان سوداء فوقها عساكر صفراء، وله ناموسية مفرودة ومزروبة

الباب كالغرفة السرية. بجوار السرير دولاب للملابس بضلفتين. وفيما بينه وبين السرير وضعت كنبة منجدة ولها مساند.

خلع زوج ستى جلبابه الصوفى وطربوشه وارتدى جلبابًا منزليا رقيقاً مقلمًا، وطاقية من نفس قماشه، ثم جلس فوق الكنبة بجوارى قائلاً لى:

- «أهلاً وسهلاً شرفت!».

فلم أرد، بل نكست رأسى فى خجل. وقالت ستى:

- «قول له كتر خيرك يا ولد يا حمار!».

فلم أرد، فربت على ظهرى قائلاً:

- «ربنا يشفيك إن شاء الله!».

تقرفصت ستى ودخلت تحت السرير، فسمعت كركبة، وخرجت بعد برهة حاملة وابور الجاز البريموس، وحلة وطاسة. أعطت الوابور نفسًا ثم أشعلته، وفتحت القفة فأخرجت البطة المذبوحة ووضعتها فى الحلة وراحت تجهز العشاء. أما زوجها فقد تربع بجوارى على الكنبة وراح يلف السجائر بعد أن يفرك على دخانها أوراقًا خضراء جافة عرفت من مندرتنا أن اسمها البانجو، ويجىء من السودان.

بعد ساعات طويلة تعشينا. كان زوج ستى يطوح نسائر اللحم فى فمه بسرعة فائقة ويغمزنى كل حين بنسيره ولكن

الطعام لم يكن له أى طعم فى فمى. غسل يديه فى مكانه على الأرض بجوار الطبلية، وشرب الشاى ثلاثة أدوار، ودخن عشرات اللفائف، وقام فأخرج من الدولاب بطانية من بطاطين الجيش وقال لى:

- «ستنام على هذه الكنبة! يلا!».

ومددنى، وطرح البطانية فوقى وقال لستى:

- «يلا يا مره!».

فقامت ستى فأزاحت الأوعية تحت السرير، وخفضت شريط المصباح فأحكمت خيمة الليل علينا، ثم لحقت بزوجها فوق السرير، وفكت عقدة الناموسية فانغلقت تمامًا. بعد دقائق رحت فى النوم، لكننى تيقظت بعد فترة على صوت هزهزة ووشوشة وزيق خشب يصطك فى خشب، ففتحت عينى، فرأيت الناموسية تتماوج والسرير يهتز بقوة، وصوت ستى يتأوه وكأنها تبكى وتتهنه تحت ضغط شديد يثقل صدرها؛ فخيل إلى أن الرجل يضربها بعنف وأننى لابد أن أكون السبب، فإذا بى أصيح من تحت البطانية:

- «ستى! يا ستى!».

فكفت الأصوات كلها فى الحال، وخيم على الحجرة صمت مريب، فحاولت النوم فلم أستطع، الأكلان راح يدب فى جميع أنحاء جسدى كأن براغيث الدنيا كلها تهاجمنى

فلا أملك لها دفعًا. صعدت شخيرًا استجلب به النوم، فإذا بالأصوات تعود من جديد، تبدأ خافتة أول الأمر ثم تشتد وتشتد حتى خيل إلى أن مذبحة تجرى خلف الناموسية فإذا بى أصيح من جديد:

- «ستى .. يا ستى!».

وكررت ندائى عدة مرات، فإذا بصوتها يجىء من خلال نوم مصطنع، ونبرة غيظ دفين:

- «عايز إيه يا ولد؟!».

قلت:

- «عايز أروح الكنيف!».

سمعت تأتأة وحركة احتجاج وغيظ. فجأة وجدتها تهبط عن السرير تلف جسدها بجلباب مفتوح كالعباءة، رفعت شريط المصباح وحملته فى يدها قائلة بغيظ دفين:

- «يلا قوم!».

فقمت، وخرجت وراءها، فمشينا على ضوء المصباح فى الردهة حتى آخرها. دخلنا بابًا تتصاعد منه رائحة النتن والظلام الدامس. قالت ستى وهى تقرب المصباح من الأرض لتكشف لى عن فتحة الكنيف قائلة: «اقعد!». فجاهدت حتى تمكنت من التوازن فوق الملاقى. ورغم أننى لم أكن راغبًا فى التبرز فإننى ما أن جلست حتى تبرزت بالفعل، وستى واقفة

بالمصباح على الباب تصيح بى كل دقيقة: «يلا يا واد اخلص!»، فقمت رافعًا سروالى تاركًا جلبابى يهبط إلى قدمى ومشيت خلف ستى إلى الحجرة، حيث مددتنى على الكنبة من جديد وأحكمت لفى بالبطانية وصعدت هى إلى السرير. وبعد دقائق صعدت شخيرى، فبعد دقائق عادت الأصوات المريبة، وسمعت زوج ستى يهمس لها «كنت مرتاحة جبت لى حاجه! مش حينفع الكلام ده!» وترد ستى: «يومين تلاته وحيروح!».

ما صدقت أن طلع النهار فقمت جالسًا، وقام زوج ستى، فتناول إفطاره، وسحب من تحت السرير خرجًا كبيرًا متخمًا ببضائع من أصناف الخردوات، حمله على كتفه وتوكل على الله. وارتدت ستى ثيابها، ولفت نفسها بالملاءة السوداء، ولبست «الشكربين» الأسود فى قدميها، وألبستنى ثوبى النظيف، وانطلقت بى إلى مستشفى البندر الكائنة خارج البلدة بين الغيطان. قطعنا تذكرة من الشباك بقرشين، وتلطعنا فى حوش المستشفى فترة تزيد عن ساعة زمن، نودى على بعدها، فانتفضت ستى مهرولة تسحبنى من يدى فأحاول اللحاق بها وبطنى تتدحرج أمامى كالقربة.

قدمونى إلى طبيب كالح الوجه مكشر الملامح دائم التأفف، فعل بى نفس ما فعله البير فهمى فى دسوق، ثم نحانى وكتب ورقة صغيرة أرفقها بالتذكرة الكبيرة الخضراء

بعد أن كتب على الأخيرة شيئًا سريعًا، أعطاها لستى. فسحبتنى وذهبنا إلى شباك آخر فى بناية أخرى بعيدة، ثم قفلنا عائدين نحمل زجاجة خل مليئة بمزيج الحديد، وبعض أقراص صفراء، وأخرى بيضاء. وفى الطريق تذكرت ستى أن الطبيب قد أوصى بالامتناع عن قائمة طويلة من الطعام لم أسمع بها من قبل، وعن مشروبات عمرى ما سمعت بها، ولا أظن أن ستى قد فهمت منها شيئًا وإن ظلت تتابعه قائلة: حاضر يا بيه! حاضر يا بيه!..

تكرر الصخب الليلى خلف الناموسية، وتكررت صيحاتى بطلب التصبير، حتى ضاقت بى ستى «فلة» أشد الضيق فما صدقت أن انتهى الأسبوع ونفد الدواء وذهبت بى إلى الاستشارة، حتى بادرت فى اليوم التالى، فألبستنى ثيابى النظيفة، وغمزتنى ببريزة فضية، وسلمتنى إلى زوجها، الذى اصطحبنى إلى محطة القطار فقطع لى تذكرة دفع ثمنها من محفظته الكبيرة التى تعج بالقروش الفضية، ووصف لى كيف أغير القطار فى محطة دسوق، وأوصانى بتفتيح العين والانتباه للمحطات وإلا سار بى القطار إلى ما لا نهاية وتكون البهدلة، ووصف لى كذلك كيف أركب من دسوق لأنزل فى محطة البكاتوش بعد ثلاث محطات، وفى البكاتوش لابد أننى سأجد ناسًا من بلدتنا معهم ركائب فأركب معهم إلى بلدتنا مسافة ستة كيلو مترات.

* * *

وصلت إلى دارنا قرب الظهر، وكان التعب قد هدنى، مع أن رجلاً من بلدتنا صادفنى على المحطة فأركبنى خلفه على ظهر حماره، فكانت بطنى المنتفخة تحك فى ظهره طول الطريق فتؤلمنى وتضايقه.

دخلت دارنا فرأيت ضوء الشارع يفرش المندرة قادمًا من الخزنة الخلفية. ارتميت فى صدر أمى واندفعت فى البكاء فصارت هى الأخرى تبكى بكاء مرًا. حكيت لها كل ما جرى، فاستمعت إلىّ بمزيد من البكاء.ولم يكن أبى موجوداً، فسألتها عنه، فقالت إنه ذهب يبحث عن سيد جودة البناء ليرمم لنا جدار الخزنة فتسللت من حضنها إلى الخزنة، فهالنى ما رأيت كان الجدار المجاور للترابيزة قد انهار فوقها بجزء كبير من السقف، فغاصت أقدام الترابيزة فى الأرض فتهشم سطحها فهبط بما فوقه من أحمال على ما تحته من مخزونات، وعرق من الخشب منكسر وغائص فى جوف الأحمال والأتربة، وقضيب من حديد السقف منطرح فوقه وطرفه الأخير لايزال معلقًا فى أعلى الجدار.

وقفت أمام ذلك المنظر تأكلنى الحسرة. وجاءت أمى فوقفت بجانبى تبكى وتصف لى كيف انهار الجدار بسقفه فجأة، وكيف أن أبى قد هزمه الحادث وقطع قلبه أكثر من حزنه على موت أخى، ليس لوقوع الجدار بالطبع بل حزنًا على الترابيزة التى لم يرض ببيعها لعلاجكما، والتى كان

يعزها معزته لماضيه وماضى عائلته، والتى لم تكن لتذوب على مر الزمن لولا أنه - كما يقول - الحسد وقر الناس عليها، لقد استخسروها فينا ونحن أبناء عز قديم، فجاءوا بأجلها مثلما جيء بأجل أخى المسكين. وصارت تحمد الله أن الجدار وقع فى النهار حيث لم يكن أحد ينام تحته.

فجأة دخل أبى ومعه سيد جودة البناء وبعض رجال. فلم ينتبه أبى إلى، بل راح يشرح للبناء كيف يمكن معالجة الجدار. وقد راح سيد يلف ويعاين، ويقول إن مياه الكنيف المجاور للخزنة هى التى خلخلت الجدار، إذ إن خزان الكنيف داخل تحته مباشرة، ولابد من كسحه أولاً قبل الفحت والبناء، ويا حبذا لو ردم هذا الخزان وتم فحت خزان آخر فى مكان بعيد. كان أبى يستمع إليه والهم يكاد يقتله، ثم إن سيد أمر فى الحال برفع الأتربة، فانبرى رجاله وبعض أبناء عمومتى بالفئوس والكريكات والغلقان يرفعون القضيب الحديدى والأتربة، فامتلأت الدار كلها بالغبار - والدخان.

استمروا ساعات طويلة على ضوء المصابيح التى استعرناها من أقاربنا،وكان أبناء عمومتى يشتغلون بهمة كبيرة حتى ينتهوا من تجهيز الوضع للبناء، إذ إنهم فى الصباح وراءهم شغل فى حقولهم، وأبى كان ملهوفًا على الانتهاء من رفع الركام ليطمئن على الترابيزة، فما أن بدأ سطحها يظهر، ويتمكن الرجال من نزع أرجلها من الأرض

حتى اندفع يجرى نحوها يعاينها، فإذا هى أربع قطع، وإذا العفن والسوس قد رتعا فى أركانها التحتانية، وإذا الأرض من تحتها مليئة بالسحالى والثعابين والعقارب والفئران والقروش الصدئة وأشياء غريبة لا حصر لها، انشغل الرجال فى تصيد الحشرات والزواحف وقتلها قبل أن تجد لنفسها مأوى آخر داخل الدار. وانشغل أبى فى مراقبة الأتربة والكراكيب التى كانت تحت الترابيزة، وراح يوصى بوضعها فى كومة أمام الدار حتى نأتى فى الصباح بمنخل وننخلها ليظهر ما قد يكون فيها من أشياء كثيرة وقعت ذات يوم تحت الترابيزة واختفت.

بعد صلاة العشاء بزمن طويل جلس أبى مسندًا رأسه بين كفيه يفكر فى هذه المصيبة التى لا يملك من تكاليفها مليمًا واحدًا . وكان سيد جودة البناء يعرف هذا جيدًا، فإذا به يفاجئ أبى قائلا:

- «صلى ع النبى يا عم الحاج زعلوك! أنا عارف إنك معذور اليومين دول! بس أنا عندى حل يريحك!».

رفع أبى وجهه متنفسًا كأنه أنقذ من الغرق، قال :

- «خير يا سيد؟ قول!».

قال سيد:

- «أرجع لك الجدار والسقف زى ما كان! وآخد الترابيزة دى أجرتى! وأنا ونصيبى! حاصلحها واحطها فى دارى! ما تتساش إنها حتكلفنى تصليح وجايز ما تنفعش!!».

حدجه أبى طويلاً فى شرود صامت، إنه يعرف أن سيد جودة البناء ولد شاطر، فهو بناء ونجار ومقاول وحداد وفى يديه سبع صنايع، ولسوف يتمكن من تصليح الترابيزة بلحم ألواح سطحها وإعادة تسميرها فى الأرجل، وربما أعادها كما كانت. ظل أبى يفكر طويلاً، إلى أن استعجله سيد قائلا وهو يقف مستعدًا للانصراف:

- «واللا بلاش! أنا آخذ أجرتى صاحية أحسن! أنا حتى عندى ترابيزة كويسه والمندرة مليانه عفش!».

فقال له أبى:

- «على كل حال أنا موافق! اتكل على الله! ربنا يملاها لك بركة!».

فصاح سيد فى رجاله:

- «شيلوها يا رجاله روحوها للدار!».

فرفعها الرجال ومضوا، فإذا هى تبدو من باطنها الداخلى جديدة ناصعة رغم السوس فى الأركان. كاد أبى يصرخ صائحًا أن اتركوها لكنه حول وجهه عنها. وحين اختفى بها الرجال وضع يديه على وجهه وانفجر فى بكاء شديد حارق. وكانت هذه أول مرة أرى فيها أبى يبكى كالنساء، فانزويت مع أمى وإخوتى فى ركن قصى ورحنا نبكى لبكائه حتى مطلع الفجر. فما كاد ضوء النهار يبص من

فوق الجدران والنخيل البعيد حتى رأينا عبر الباب الموارب أشباحًا تتسلل فى الخفاء، لصبيان ونساء ورجال جاءوا من أماكن بعيدة، وانكبوا فوق كوم الأتربة أمام دارنا وراحوا ينكشونه بحثًا عن الأشياء التى كانوا يسمعون منذ وقت بعيد أنها وقعت تحت ترابيزتنا. ولسنا ندرى كيف بلغهم نبأ سقوط الترابيزة بعد هذا العمر الطويل وكان أبى قد استسلم لسِنة من النوم، فخرجت أمى حاملة بلاص الحمام المملوء بماء نتن، وصارت تقذف بمائه الأشباح لاعنة صارخة، فاندفعوا يجرون كسرب من العصافير المذعورة.

* * *

ثم إن الأيام قد مرت، وارتفع الجدار من جديد دون أن ينتقل خزان الكنيف من مكانه، ولكن الخزنة اتسعت وصارت أرضها نظيفة، إلا أننا مع ذلك نقلنا مكان نومنا إلى المندرة نفسها فى الصيف، وفى الشتاء ننتقل إلى قاعة فى الداخل كالعادة.

وكان موعد ابتداء الدراسة قد صار على الأبواب، وكنت قد بدأت أضيق بالقعدة فوق الكنبة، وأجرؤ على المشى فى الخلاء بعض خطوات، لأستريح على إحدى المصاطب فى الشارع العمومى، لكن بطنى المنتفخة كانت تثقل خطواتى، فأقفل عائدًا إلى مصطبتنا أمام دارنا.

وذات يوم كنت جالسًا على هذه المصطبة مع شوشة ابن عمى، الذى كان يروح المدرسة معى وقد أصبح يسبقنى بسنة. كانت أمى تغريه بقطعة حلوى وحفنة ترمس لكى يجلس معى وينقل لى أخبار ما تعلموه فى الفصل فى غيبتى، حتى يشغلنى عن الوجع، وفى نفس الوقت يجدد المدرسة فى دماغى.. وإذا بامرأة غجرية عجوز تمر حاملة سفطًا على رأسها تنادى:

- «أضرب الودع والرمل واشو.. و .. و.. فـا».

فنادتها أمى لتشوف بختها، وهى فى الواقع تريد أن تعرف من هذه المرأة ما سوف يحدث لها من كوارث مدخرة، وهذه الأحداث تتعلق بى أنا. انحطت المرأة جالسة فى الحال، وأخرجت حفنة رمل وقوقعة وبعض أوراق الكتشينة وطلبت اسم أمى واسم أمها.

فأجابتها أمى. وشرعت العجوز تقلب فى الرمل، فاقتربت أنا منها لكى أرى ماذا تفعل وماذا تقول.

حدقت المرأة فى وجهى ومصمصت شفتيها فى أسف وقالت:

- «يا حبة عينى! الولد ده عيان بالطحال!!».

قالت أمى فى سرعة ولهفة:

- «بتقولى إيه يا اختى؟!».

قالت المرأة:

- «العارف هو الله!! لكن طحال هذا الولد منتفخ منذ وقت طويل! يكاد والعياذ بالله ينفجر!!».

فبكت أمى على الفور قائلة:

- «دخنا بيه على الحكما!».

قالت الغجرية فى ثقة مذهلة:

- «شفاؤه على الله وعلى!».

قالت أمى:

- «يبقى لك حلاوة كبيرة قوى! قوى!».

قالت الغجرية:

«ارمى بياضك!».

فرمت أمى لها بقرش صاغ كامل، وحفنة أرز، وبيضتين وثلاثة أرغفة.

قالت المرأة:

- «شوفى يا بنت اخوى! تجيبى قزازة خل! وتجيبى حتة خميرة! تحطى الخميرة فى فنجال مليان خل! وتحطى الفنجال بالخل والخميرة فوق سطح الدار يسمع التلات أدانات: المغرب والعشا والفجر! وتخلى المحروس ده يشرب فنجال الخل بالخميرة على ريق النوم الصبح! تلات تيام ورا

بعض أول كل شهر عربى! لمدة تلات شهور والباقى على الله!! وفى الشهر التالت حافوت عليكى عشان آخد الحلاوة!».

قالت هذا فى ثقة شديدة، ثم نهضت حاملة سفطها ومضت تنادى: أضرب الودع واشوف البخت واشو .. و.. و.. ف.

لم تكن أمى واثقة من كلام الغجرية، لكنها قالت: مش حنخسر حاجة، وظلت تحسب لقدوم أول الشهر بفارغ الصبر حتى إذا ما جاء اليوم الأول نفذت ما قالته الغجرية بكل دقة، ناولتنى الفنجان المرطب بالندى، وقطعة حلوى، ثم قسرتنى على تجرعه وألقمتنى قطعة الحلوى وراءه فى الحال.

فى اليوم الثالث من الشهر الأول شربت الفنجان وحدى بغير مدافعة، وفى نهاية الشهر كانت بطنى قد هبطت قليلاً وزال عنها بعض الانتفاخ، وفى اليوم الأول من الشهر الثانى كنت أنا الذى يملأ الفنجان ويضعه فوق السطح، وأقوم مبكرًا لأدلقه فى جوفى سواء توفرت قطعة الحلوى أم لم تتوفر، وفى نهاية الشهر الثانى كنت قد تمكنت من الذهاب إلى المدرسة وحدى وقد زال انتفاخ بطنى تمامًا، وفى الشهر الثالث كانت أمى تبحث عنى فتجدنى ألعب الكرة الشراب فى الجرن كالعفريت.

واصطلح أبى مع صحابه فاستأنفوا السهر فى مندرتنا، حيث يتكلمون فى الثورة التى قامت فجأة، وعن الملك فاروق الذى أزيح عن عرشه، وعن محمد نجيب الذى أعلن الجمهورية وترأسها. وحين كانت الذكريات تجرهم إلى الحديث عن الترابيزة الشهيرة كان أبى يبتسم قائلاً: الملك فاروق نفسه انزاح عن عرشه! سبحان مَن له الدوام.

«تمت»

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس
www.maktabetelosra..org
E--mail:info@egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٨٥ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9712 - 2



إن القـراءة كـانـت ولاتـزال وسـوف تبقـى، سيـدة مصـادر المعرفـة، ومبعـث الإلهـام والرؤية الواضحة .. وعلـى الرغـم مـن ظهـور مصـادر حـديثـة للمعرفة، وبرغـم جـاذبيتها ومنافسـتها القـويـة للقـراءة، فإننى مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلُم، فهـى وعـاء القيم وحافظة التـراث، وحـاملـة المبـادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله .

سوزان مبارك



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٥٠ قرشا